محمّد جواد مغنية



بنیاد محقق طباطبایی

صفحات لوقت الفراغ

منشورات
دار الكتاب الاسلامي
بيروت - لبنان

الكتاب : صفحات لوقت الفراغ
المؤلف : محمد جواد مغنية
الناشر : دار الكتاب الإسلامي
بيروت — لبنان
التاريخ : ١٣٩٩ هـ ١٩٧٩ م

المقــدّمة

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على محمد وآله الطاهرين

المؤلفون :

اعتاد أكثر المؤلفين في هذا العصر ، أن يشيروا في آخر الكتاب إلى ما كتبوا وأنتجوا ، مما طبع وانتشر ، أو في المطبعة ، أو في الطريق إليها ، لأنّ القارىء إذا تأثر واقتنع بما يقرأ شعر بالإلفة والإنسجام مع المؤلّف، وأحب أن يقرأه كلمة كلمة ، فيرشده الكاتب – وهذي هي الحال – إلى ما كتب من قبل . وعلى النقيض من ذلك إذا لم يجد الكتابُ طريقاً إلى عقل القارىء ووجدانه .

وأشرت فيما سبق إلى ثلاثة كتب مهيّئة للطبع : الأول : « من ذا وذاك » وقد نشرته دار الكتاب الإسلامي ، وقريباً يخرج إلى الأسواق بحول الله وقوته ، والثاني : « صفحات لوقت الفراغ » وهذه مقدمته ، وبه يبلغ مجموع ما طبعت ونشرت حتى الآن خمسين كتاباً ولله الحمد ونسأله المزيد من فضله ، والثالث : « تجارب محمد جواد مغنية بقلمه » ولكلّ حادث أجل لا يعدوه .

وظنّ شيخ من خلق الله تعالى أنّي أذكر هذا الكتاب لمجرّد التهويل والإعلام بلا حادث وموضوع ! علماً بأنّ ديننا يأمر بالحمل على الصحة

حتى يثبت العكس . ولكنّ واقعنا يؤكد أنّنا لا نُباري في مجال التنافس والتحاسد . ومتى أعلنت عن كتاب لم يصل إلى أيدي القرّاء ؟ وهل يلجأ إلى التهويل والتدجيل إلا فاشل أو مخاتل ؟.

في سنة ١٩٧٣ زارني آية الله السيد محمد باقر الصدر في فندق الإستراحة بكربلاء وكان أمامي كتاب التجارب . وعلى ظهر الكتاب اسمه بالخط العريض . ففتحه كيف اتفق ، وقرأ منه أسطراً بعنوان : « الوجودية في التعليم النجفي ». فابتسم وقال كلمة نسيتها بالحرف والشكل ، وأذكرها بالمضمون والمعنى : جرّ الوجودية إلى التعليم النجفي يفتقر إلى معرفة الجار والمجرور .

وقت الفراغ :

قال الإمام السجاد وسيد العباد عليه السلام : « أللهمّ فإن قدّرت لنا فراغاً من شغل فاجعله فراغ سلامة لا تدركنا فيه تبعة ، ولا تلحقنا فيه سآمة».

الإنسان ملزم بالعمل من أجل العيش . ما في ذلك ريب ، ولكن لابد من ساعات الفراغ ، لأنّ العمل بقسوة خطر على الرّوح والجسم ، كما أنّ البطالة والعطالة جريمة تقترف في حقّ الله والإنسانية . والإمام عليه السلام يطلب من الله سبحانه أن لا يقتل ساعات الفراغ بما لا يرضيه ، أو بكسل يحس معه بالضيق والملل .

ولا أعرف شيئاً يجمع بين المتعة والمنفعة مثل الكتاب القيّم ، فإنّه كالشجرة الطيّبة المثمرة ، تعطيك أكثر مما تأخذ منك ... وفي هذا الكتاب مجموعة من الكلمات المتنوعة مادة وموضوعاً ، وأطلقت عليها اسم : « صفحات لوقت الفراغ » لأنّي لا أنصب من نفسي حكماً على نفسي وآثاري ، ولكنّي أتمنّى أن يجد فيها القارىء المتعة والفائدة والله ولي التوفيق.

محمد جواد مغنيّة

فلسفة أبي ذر

فلسفة أبي ذر فريدة ووحيدة في شكلها تماماً كمزاجه وحياته وموته وبعثه .. وقـــد تجد في تاريخ الإنسان أُلوف الزّاهدين . ولكنّ زهـــد أبي ذر ليس كمثله زهد .. دخل إلى بيته واحد من النّاس،ودار ببصره فلم يجد شيئاً على الإطلاق إلا أبا ذر بجلده وعظمه ، فدهش الرّجل وقال : يا أبا ذر أين متاعكم ؟. قال : « لنا بيت نوجه إليه متاعنا » . فقال له الرّجل : لا بد لك من متاع ما دمت هنا . قال أبو ذر : صاحب البيت لا يدعنا هنا .

من هنا تنبع فلسفة أبي ذر . ومن هنا يبدأ كفاحه ضدّ المترفين الذين كان ينذرهم بقوله تعالى : « وَالّذينَ يَكْنِزُونَ الذّهَبَ والفِضّةَ وَلاَ يُنْفِقُونَهَا في سَبِيلِ الله فَبَشّرْهُمْ بِعَذَابٍ أليمٍ — ٣٤ التوبة». فضاق به السّلطان عثمان ، ونفاه إلى حيث لا زرع ولاَ ضرع ، ولا ناس وإيناس .

وهناك ثقلت الهموم والآلام على أبي ذر ، فماتت ابنته في مقتبل العمر ، وابنه في ريعان الشّباب ، فرثاه بهذه الكلمات الرّاحمة العالمة :

« رحمك الله يا ولدي ، لقد كنت كريم الخلق بارّاً بالوالدين ، وما

عليّ في موتك من غضاضة ، ومالي إلى غير الله حاجة ، وقد شغلني الإهتمام لك عن الإغتمام بك . ولولا هول المطّلع لأحببت أن أكون مكانك ، فليت شعري ماذا قيل لك ؟ وماذا قلت لهم ؟. أللهمّ إنّك قد فرضت عليه حقوقاً لي ، وحقوقاً لك ، وقد وهبته ما فرضت لي عليه من حقوق ، فهب له أنت يا إلهي ما فرضت عليه من حقوقك ، فإنّك أولى منّي بالفضل وأكرم » .

ماذا قيل لك وقلت لهم ؟ هذا هو الأهم عندي من قربك وحياتك ، وإن كنت وحيدي وبضعة من كبدي ، فإنّي إلى رحمة الله أحوج منّي إلى الإيناس بك ..

أجل ، إنّ أخوف ما أخافه عليك هو موقف العرض ، ونقاش الحساب ، وموضوع الثّواب والعقاب .

وليت شعري عن أيّ شيء يُسأل ؟ وعلى أيّ شيء يُحاسب ذرو أبو ذر؟.. حتّى الكفن ضاقت به زوجته وبكت!.. ولما سألها: ماذا يبكيك؟ قالت : ومالي لا أبكي ، وليس عندي ثوب يسعنا كفناً لي ولك !

لله أنت يا أبا ذر . إنّ زهدك لعجيب !.. حتّى الكفن وجهت به إلى بيتك الدّائم الخالد !. وهل الأكفان من لباس الدّنيا وأهلها ؟. وكأنّي بأبي ذر نزل في حفرته جلداً وعظاماً ، ومن أين يأتي اللحم والشّحم ، من الفقر والجوع ، أو من الأحزان والآلام ؟.

وبالمناسبة، جاء في أُصول الكافي : إذا كان يوم القيامة يذهب الفقراء إلى باب الجنّة ويضربونه ، فيقال لهم : من أنتم ؟ فيقولون : نحن الفقراء . فيقال لهم : أقبل الحساب تريدون الجنّة ؟ فيقولون : ما أعطيتمونا شيئاً تحاسبونا عليه . فيقول الله جلّ وعزّ : صدقوا ، ادخلوا الجنّة .

وقال أرباب التّاريخ والسّير : مضت على أبي ذر في الصحراء ايام سوداء ، كان وأهله يأكلون فيها من نبات الأرض ، ولما طالت المدّة ، واشتدّت المحنة ترك منفاه ، وقصد عثمان ، ونظر إليه بعينين غائرتين من البؤس والجوع وقال :

يا عثمان أخرجتني إلى أرض لا زرع فيها ولا ضرع ، ولا ظل إلا ظلّ شجرة ، فاعطني شويهات أعيش بها . فأعرض عنه عثمان بخيلاء وازدراء، وإذا بواحد من الحواشي والذّيول ، وهو حبيب بن مسلمة ، يقول لأبي ذر : لك عندي ألف درهم وخادم و ٥٠٠ شاة . فنهره أبو ذر ،وكان قد هاجمه من قبل مرّات ، وقال له بغضب : إعط ألفك وشويهاتك وخادمك لمن هو منّي أحوج ، فأنا أسأل حقّي في كتاب الله ، ولا أستجدي .

أبداً ، لا أحد أحوج آنذاك من أبي ذر ، وعلى حاجته ما أراد إلا إقامة الحجة على عثمان ، وأنّه يعطي مال الله إلى غير أهله ، ويمسكه عمّن هو أحق به وأولى في كتاب الله .

وفي هذه اللحظة دخل الإمام عليّ (ع) إلى مجلس عثمان ، فالتفت هذا إلى الإمام وقال له : ألا تُغني عنّي سفيهك هذا !. — أبو ذر سفيه أيّها المسلمون ، ومروان بن الحكم عقل وحكمة ، ودين وعصمة !. ولا بدع أولئك بعضهم أولياء بعض ! —

فقال الإمام لعثمان : كلاّ ، إنّه ليس بسفيه ، « فقد سمعت رسول الله يشبّه زهد أبي ذر وتواضعه وحياءه بما كان لعيسى من زهد وتواضع وحياء » . وكفى بهذا إثماً مبيناً لأبي ذر عند من انتقم منه !.

وما أتمّ الإمام كلامه حتّى انطلق أبو ذر عائداً إلى منفاه . فناداه الصّحابة فلم يجب أو يلتفت .

ومرّة ثانية أقف عند رثاء أبي ذر لولده .. خاف عليه من هول المطّلع ، فشهد له بما يعلمه من خيره وبرّه ، وتضرّع إلى الله أن يرحمه ويرفق به ، وناشده أن يهب له ما لا ينقصه ويثلمه وقال : « قد وهبته ما جعلت لي عليه من حقّ . فهبه أنتِ يا إلهي حقّك عليه ، فإنّك أكرم منّي » .

بل وأرحم بعباده من الام بطفلها ، كان النّبي يوماً بين أصحابه ، فمرّت امرأة ترضع طفلها وهي تضمّه إلى صدرها بحنان ، فقال لأصحابه: أترون هذه طارحة ولدها هذا في النار ؟ قالوا : لا والله يا رسول الله . فقال : إنّ الله أرحم بعباده من هذه بولدها .

أبداً .. لا مناص ولا خلاص إلا بالتّوبة الماحية والرّحمة الواسعة ... أللهم إنا نسألك ما سألك حبيبك ووليك أبو ذر ، وإذا لم نكن عندك على مكانه منك فإنّا نتقرب إليك بحبّه والولاء له ، فهب لنا بحقّه ومنزلته عندك حقّك علينا ولو من باب الزّيادة في إكرام أبي ذر الّذي نصح لك وكدح فيك ، وأبلى البلاء الحسن . وصلّ على محمد وآله ، وعلى أبي ذر وأمثاله .

وبعد ، فإنّ فلسفة أبي ذر فوق الشّيوعية والإشتراكية والرّأسمالية ، إنّها قرآنية محمدية ، لا شرقية ولا غربية ، إنّها عمل لبيت عند الله في جوار « النّبيين والصّدّيقين والشّهداء والصّالحين وحسن أولئك رفيقاً ».

وقد يقول قائل : لو كانت فلسفة أبي ذر تهدف إلى حرث الآخرة وكفى ، ولا يبتغي من ورائها إلاّ بيتاً في الجنّة — لم يكن له هذا الخلود وهذه الشّهرة ، لأنّ هذا الهدف يعنيه ويخصّه وحده ، والناس لا تهتم بمن يعمل لنفسه وشخصه حتّى ولو كان عمله لليوم الآخر ، وإنّما تهتم بمن يعمل لها ويضحي من أجلها وإلا فكم من صوفي وزاهد مات جوعاً دون أن يذكره ذاكر .

إنّ أبا ذر هاجم الأقوياء المترفين ، وناضل من أجل الضعفاء والمعدمين ، وطالب بالقضاء على الفقر وصور القسوة والعنف وإرغام الناس على ما لا يريدون ، ولاقى في هذه السّبيل فوق ما يستطيع لا لشيء إلا لوجه الله وخير الإنسان . ومن هنا دخل اسمه التّاريخ ، من صلته الوثيقة بالفقراء والمساكين ، وما عاناه من أجلهم من تنكيل ومطاردة ، لا من زهده في الدّنيا وكفى ، وأيضاً من هنا أُلصقت به الإشتراكية التي يجهلها مبنى ومعنىً.

الجواب :

أجل ، إنّ أبا ذر ظهر واشتهر لأنّه ثار ضدّ الّذين انتهبوا واغتصبوا حقّ الأكثرية السّاحقة من المعدمين . ما في ذلك ريب ، ولكن كان في إيمانه وعقيدته أنّه لا وسيلة تقرّبه من خالقه وتنجيه من عذابه ، وتبني له بيتاً عند الله في الجنّة – خير وأفضل من الوقوف إلى جانب المستضعفين ، وجهاد الّذين يموتون من التّخمة ، وحولهم أكباد تموت من الجوع والحرمان .

وأخيراً ، هل الّذي يعيش منعزلاً عن ركب الحياة ، ويهمل النّواحي الإجتماعية ، ولا يحس بآلام مظلوم ومحروم ، هل هذا مسلم حقّاً وواقعاً، وهل قوّة الإسلام والمسلمين بعلوّ الأحجار والمآذن ، وبناء الحسينيّات ، وتلاوة آي الذّكر بمكبّر الصّوت وكفى ؟. إنّ الإسلام الحق إيمان وعمل مثمر في كلّ فرع من فروع الحياة .ومن أقوال أبي ذر وخطبه في الجماهير : اجمعوا مع صلاتكم وصومكم غضباً لله إذا عصي في الأرض ، ولا ترضوا الرّؤساء بسخط الله » .

على مثل الشمس فاشهد

الصمت أولى :

لك أن تقول : لا روعة ولا جمال للفجر وهو ينبثق ، وأنّ الشمس سبب الحروب والأمراض – مثلاً – لك رأيك الشّخصي وحكمك الذّاتي في الكثير من الأشياء الطّبيعية والامور النّظرية ، ولا سبيل لأحد عليك ما دام الأمر يختص بك وحدك ولا يتعدّى إلى سواك من قريب أو بعيد حتّى ولو أنكرت ما قال الأوائل والأواخر .

أمّا إذا كان الرّأي أو الحكم يمس الآخرين فحرام محرم إبداؤه والنّطق به إلا بعد قيام الدّليل القاطع لكلّ شك واحتمال مخالف تماماً كما قال الإمام جعفر الصّادق للشّاهد : « عَلَى مِثْلِ الشَّمْسِ فَاشْهَدْ وإلاّ فالصَّمْتُ بِكَ أَوْلى » ولا فرق من حيث المنع والتّحريم بين العدوان على مال الإنسان ودمه وبين الحكم عليه بالباطل ، ولا بين تعمّد الكذب والبهتان وبين أن تفسّر أقواله وأفعاله بما لا يقصد ويريد ، وبالخصوص إذا أفصح هو عن قصده ومراده .

وبهذه المناسبة نشير بإيجاز إلى الغيبة وحكمها :

الغيبة :

تكلّم الفقهاء وغيرهم عن تحديد الغيبة وحكمها وأطالوا ، وأفضل ما قرأت في بابها ، خبر مطوّل عن الإمام الصّادق جاء في كتاب مصباح الشّريعة ، ومعناه ملخصاً أنّ الغيبة تحقّق بأحد أمرين :

١ ـ أن تستقبح من الرّجل ما فيه من خير ، وتؤول الفضيلة بالرّذيلة تماماً كما يصد الشّيطان عن سبيل الله .

٢ ـ أن تذكر ما فيه من عيب حقّاً وصدقاً ، ولكن بقصد التّشفّي أو الحسد أو السخرية أو التّشهير أو التبرّم من حياته أو تملّقاً لعدوّه أو كان فيك مثل الذي فيه من عيب .

هذي هي الغيبة بحقيقتها وهويّتها ، أما إذا ذكرت من ذكرت بما فيه من عيب ، وكنت أنت معافىً منه ، وأنّك ما قلت ونطقت إلا لمجرد بيان الحقّ من الباطل تماماً كبيان النّبيين والصدّيقين ، أما إذا كان ذلك فما هو من الغيبة في شيء ، ولا ضير عليك .

الشك المنهجي والمذهبي :

قسّم الفلاسفة الشك إلى منهجي ومذهبي ، والمراد بالمنهجي أن نشك في موضع الشك والسّؤال ، ونتحرّر من كلّ رأي أو معتقد سابق حول الموضوع الّذي نتكلّم عنه ، وننصرف إليه بلا تحيّز . وإلى هذا أشارت الآية ١٥٢ من الأنعام : « وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى ». وأيضاً يسمّى هذا الشّك بالشّك المنظّم والنّاقد .

والمراد بالشك المذهبي أن يُتّخذ الشّك ديناً يدان به في كلّ شيء

اسم الجلالة عنوان اغنية جديدة

في جريدة الأهرام ١٥ – ٨ – ١٩٧٥ : « في برنامج أحد الملاهي الليلية في القاهرة أغنية جديدة بعنوان « الله حيّ » للفنانة الرّاقصة فيفي عبده».

مغنّية راقصة تضع على جسمها أقلّ ما يمكن من الثّياب ، ويتحلّق حولها من الفحول الطّوامح تغريهم بالنظرات الفاتنة والحركات المهيّجة – تدنّس لفظ الجلال والإكرام على منظر ومسمع من شيوخ الأزهر ، ولا ثائر منهم ولا رادع !. وليست هذه الإستهانة باسم الجلالة وعظمته بدعة وكفى ، بل هي أشدّ طغياناً وكفراً من الشّرك والإلحاد .

إنّ اسم الله للصّلاة والدّعاء لا للرّقص والغناء ، وفي حال الخوف والإنكسار لا لساعة اللهو والطّرب ، قال سبحانه : « ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرّعاً وَخيفَةً إنّهُ لا يُحبّ المُعْتَدينَ – ٥٥ الأعراف » إنّ ذكر الله في محتواه ومعناه هو استحضار القلب والعقل لجلاله وهيبته ، أما النّطق بلا وعي وحضور فهو لغط وهجر . قال جلّ وعزّ: « ثُمّ تَلينُ جُلُودُهُم وَقُلُوبُهُمْ إلى ذِكْرِ الله – ٢٣ الزّمر » .. « ألاَ بِذِكْرِ الله تَطْمَئِنّ القُلُوبُ – ٢٨ الرّعد » .. « تَبَارَكَ اسْمُ رَبّكَ ذي الجَلاَلِ وَالإكْرَام – ٧٨ الرّحمن » .

والّذي يدهش أنّ بعض الشّيوخ يتجاهل هذا العبث والتّلاعب بدين الله ، ثم يكافح ويدافع باسم الدّين وبإرادة من حديد عن ملك أو أمير ، أو عن سياسة رئيس جمهورية يرضاه ويهواه .

فقد نشرت جريدة الأهرام ت ١ – ٨ – ١٩٧٥ : أنّ المؤتمر القومي دعا إلى تجديد الرّياسة لأنور السّادات ، وكان من بين المتكلّمين الشّيخ أحمد حسن الباقوري ، وقد حاول أن يعزّز هذه الدّعوة بأدلّة من العقل والنّقل ، فذكر منَ أدلّة العقل حكمه بقبح الإكثار من الإنتخابات لرئيس الجمهورية حيث تؤيّده جماعة وتعدّد المحاسن ، وتعارضه فئة وتذيع المساوىء ، وهذا لون من المهانة لرجل سيكون بعد قليل رئيساً للجمهورية !

وذكر الباقوري من أدلّة النّقل حديثاً شريفاً يقول : « من أعزّ سلطان الله أعزّه الله » . وفسّر سلطان الله « بأمير في الخليج ، أو ملك في مملكة ، أو رئيس في جمهورية » ! وأيضاً استدل هذا الشّيخ بما جاء في كتاب الموافقات للشّاطبي : أنّ من قصّ ذنب بغلة فليس عليه غرامة إلا أن تكون بغلة السّلطان لأنّ السّلطان إذا ركب بغلة بلا ذيل ذهبت هيبته وخيف على ملكه ! .

ثم استنتج الشّيخ من أمير الخليج وملك المملكة وذيل البغلة أن الأفضل أن نجنّب السّلطان تجربة الإنتخابات لما فيها من المهانة له !.

ولا أدري : هل هذا نشاط في ميدان الفكر ، ومباراة مع محطّات الفضاء وسفينة القمر ، أو هو تجديد في الدّين واجتهاد يلهب نفوس الجيل والشّباب بشعلة الإسلام ونور الإيمان بالله واليوم الآخر ؟.

أبداً ، لا شيء أدعى للتّنفير من الدّين ومهانته ، من معمّم أو مقلنس يكون « ذيلاً لأمير في الخليج ، أو للملك في مملكة ، أو لرئيس في جمهورية».

وبعد ، فهل نلوم النّشء إذا انحرف مع التّيارات والفلسفات الّتي تتصدّى للدّين ؟ .

حول أحاديث رمضان

في كل عام نسمع في الحفلات ومن محطّات الإذاعة اللبنانية وغيرها أحـــاديث دينية موسمية ، منها عن مولد الرّسول الأعظم (ص) في شهر ربيع الأول ، وأُخرى عن الإسراء والمعراج في رجب ، أما أحاديث الصّوم في رمضان فإنّـها تمتد وتكرّر من بدايته إلى نهايته كلّ عام .

وما من شك أنّ الإهتمام بالدّين يبشّر بخير ويدعو إلى التّفاؤل إذا وصلت دعوة الدّاعي إلى قلوب النّاس وعقولهم ، وتقبّلوها بقبول حسن.. ولكن يا للأسى والأسف أنّ عدد المتمرّدين على الصّيام والصّلاة يزداد ويستمر كلّما زادت أحاديث رمضان والبرامج الدّينية في الإذاعة والتّلفزيون وليس الذنب ذنب الدّين ، ولا العيب فيه ، كيف ؟ وهو يدعو للّتي هي أقوم ، إلى حياة أفضل يلمسها المتديّن في دنياه قبل آخرته ، وإنّما العيب فينا نحن ، في أحاديثنا المستهلكة الّتي ملّ النّاس سماعها وتكرارها .

إنّ أية دعوة لا تستهدف الإنسان ومصلحة الإنسان يستحيل أن تخرق الآذان بشكل فعّال دينية كانت أم غير دينية ، وأحاديث رمضان الّتي تذاع وتنشر كلّها أو جلها تدور في حلقة مفرغة مغلقة . يسترسل واحدهم فيما فرغ النّاس منه منذ زمان وزمان ، ويتبسّط معتزّاً بفهمه وعلمه

بمسلّمات موروثة جيلاً عن جيل، ولا يمس شيئاً من أماني الكثرة الكاثرة . ولا مشكلة من مشكلات الحياة والقضايا الأساسيّة .

هذا ، إلى أنّ من يدعو الناس إلى الدّين يجب عليه قبل كلّ شيء أن يكسب ثقتهم بدينه وعلمه .. وبعض الدّعاة إلى الصّيام تفوح من كلماتهم وأفواههم رائحة الإفطار عن عمد وبلا عذر !. إنّ الكلمة توشي بصاحبها. وتكتسب من ذاته معنىً جديداً تضيفه إلى معناها المكتوب في قواميس اللغة.

إنّ الدّعوة إلى أيّ مبدإ أو فكرة قد أصبحت اليوم علماً له أُصوله وقواعده . وأهمّ شيء يجب أن يعرفه دعاة الدّين ويحيطوا به علماً هو الفلسفات والتّيارات العنيفة التي تتصدّى لدين الله . وأن يفنّدوا هذه الفلسفات بالحكمة ومنطق العقل ، فيشرحوا ويوضّحوا دور الدّين في خدمة الإنسان . ووقوف الإسلام إلى جانب المستضعفين والحرب من أجلهم .وأنّ حروب النّبي ما كانت إلا للدّفاع عن حقّ الضّعفاء وكرامتهم وأنّ كلمة « لا إله إلا الله » تجرّد الإنسان من كلّ امتياز واستعلاء . وتضع الجميع على مستوى واحد في الحقوق والواجبات . ولا تعطي الفضل إلا لمن يضحي ويقدّم للنّاس عملاً جديداً ومفيداً .

وهذا هو الجديد والتّجديد الّذي نريده في أحاديث رمضان ، أما التّوكيد على وجوب الصّوم والتّذكير بالجائعين بكلام عام ومبهم — فعلينا أن نكف عن مضغه واجتراره بعد أن أصبح لفظاً بلا معنىً لكثرة مالاكته الألسن ، علينا . ونحن ندعو إلى الدّين أن نقدّمه بأُسلوب يحترم العقل والإنسان . ويهتم بشؤونه ومصالحه ، وأن نستخدم التّشويق والتّرغيب قبل التّخويف والتّرهيب .

لقد تطوّر وتغيّر كل شيء إلا أُسلوب الدّعوة إلى الدّين . وطريقة تقديمه إلى النّاس .. أجل كثرت العمائم والقلانس وتضاعفت كمّاً وكيفاً .

ولكن قلّ الديّانون . وارتفعت المآذن وزاد عدد المعابد واتسعت كثير عن ذي قبل ، ولكن بعد أن قلّ المصلّون ، وتكرّرت أحاديث رمضان على عدد أيّامه . ولكن قلّ الصّائمون . وتليت آي الذّكر الحكيم في مكبّرات الصّوت ليلاً ونهاراً . ولكن لا اذن تسمع ولا قلب يخشع .

وصدق رسول الله (ص) حيث قال : « بدأ الإسلام غريباً ، وسيعود غريباً » والفرق أنّه كان غريباً بين مشركي مكة . وهو اليوم غريب بين قومه وأهله . والسّرّ في ذلك أنّ عصرنا هذا هو عصر الحضارة المادية والمصلحة الشّخصية الّتي أصبحت بديلاً عن اللات والعزّى ومناة الثالثة الاخرى .

وبعد ، فلا جدوى من بناء المساجد والحسينيّات ، ولا من إقامة الحفلات وعقد المؤتمرات ، ولا من أحاديث رمضان وتلاوة الآيات ما تجاهلنا الحقّ والقيم الإنسانية ، وعبدنا أصنام هذه الحضارة والمنافع الشّخصية ، والتحمنا معها جسماً وروحاً ، واتخذنا منها مقياساً لما نقول ونفعل . وصدق الله العليّ العظيم : « إنّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَابِأَنْفُسِهِمْ — ١١ الرّعد » .

- السيد محسن الامين
وأحد شيوخ السنّة المنصفين

الجمع بين الصّلاتين :

في سنة ١٩٢٢ و٢٣ كنت في بيروت عاملاً كادحاً ، وكان يخدم المسجد العمري الكبير رجل متقدّم في السّن ، وكنت أراه يطوف كلّ يوم في الأسواق المحيطة بالمسجد قبل أذان العصر بقليل ، ويقول بصوت خاشع : « يالّي ما صلّيت الظّهر العصر قريب» يُذكر بصلاة الظّهر من لم يؤدها بعدُ .. وكانت الصّلاة آنذاك قرّة عين المسلمين ، وكانت بيوت الله سبحانه تغص بصفوف المصلّين من كلّ فئة حيث كانت العلاقة والأسباب بينهم وبين الله وثيقة ومحكمة .

والشّيعة يجيزون الجمع بين صلاة الظّهر والعصر ، وبين المغرب والعشاء ، وقد اعتادوا منذ القديم على هذا الجمع ، وليسوا بحاجة إلى التّذكير بالظّهر إذا قرب وقت العصر ، والسّنّة يوجبون التّفريق فحسن التّذكير ، وليس هذا من الخلافات الجوهرية ، ولا من الفروق في الاسس والمبادىء العامّة ما دام كلّ من الفريقين يوجب الصّلاتين كمّاً وكيفاً ، وبالخصوص أنّ الشّيعة لا يمنعون التّفريق ، بل يرونه راجحاً ومستحباً ، ولكنّ دعاة

الشّقاق والتعصّب يتـّخذون من هذا الخلاف الجانبي وأمثاله وسيلة للفتنة والفساد في الأرض . ويتجاهلون مآسي الإسلام وأهله . وما يجري في الفلبين وغيرها حيث يُذبح المسلمون ويُفتنون في دينهم فتنة دامية .

وعلى أيـّة حال . فإنّ الشـّيعة يعتمدون للجمع بين الصّلاتين على أحاديث صحيحة نقلوها من كتب السـّنّة ومصادرهم . وفي سنة ١٩٧٣ نشر الخطيب التقي المعروف الشيخ عبد اللطيف البغدادي كتاب « حول الصّلاة والجمع بين فريضتين » نقل كلّ أو جلّ الأحاديث والأقوال من طرق السـّنّة النـّاطقة بأنّ النـّبي (ص) جمع بين فريضتين من غير خوف وسفر . وهذا السـّفر القيـّم وحيد في بابه .

ومن تلك الأحاديث ما رواه الإمام مالك في الموطـّأ : « صلّى النـّبي (ص) الظـّهر والعصر جميعاً . والمغرب والعشاء جميعاً من غير خوف ولا سفر » .

ومنها ما جاء في مسند أحمد : « إنّ رسول الله (ص) جمع بين الظـّهر والعصر ، والمغرب والعشاء بالمدينة من غير خوف ولا سفر » .

ومنها ما رواه البخاري في صحيحه ج ٤ ص ٢٠٦ : « صلّى رسول الله (ص) سبع ركعات وثماني ركعات » . أي العشائين والعصرين جمعاً كما قال الشـّارح .

ومنها ما رواه مسلم في صحيحه باب الجمع بين الصّلاتين في الحضر : « صلّى رسول الله (ص) الظـّهر والعصر جميعاً ، والمغرب والعشاء جميعاً من غير خوف ولا مطر » .

حيَّ على خير العمل :

وإذا كان في شيوخ السّنّة من يتعصّب للجهل . ويطلب الدّنيا بالدّين فإنّ فيهم المحق المنصف يعترف بالحق ولا يكتم شهادة عنده من الله . وإليك هذه الشّهادة المؤمنة المخلصة من عالم سنّي جليل يتولّى منصب الإفتاء :

في الجزء الأول من أعيان الشّيعة استدل المرحوم السيّد محسن الأمين على أن « حيّ على خير العمل » فصل من فصول الأذان . بما حُكي عن البيهقي من الشّافعية أنّه روى ذلك في سننه الكبرى . وأيضاً رواه الطحاوي من الحنفية . ونقل صاحب السّيرة الحلبية في ج٢ ص١٥ أنّ الإمام زين العابدين (ع) وعبدالله بن عمر كانا يؤذّنان بحيّ على خير العمل .

هذا كلّ ما قاله السيّد الأمين حول « حيّ على خير العمل » في الطّبعة الاولى للجزء الأول من الأعيان . ولمّا قرأه المفتي المشار إليه كتب رسالة مفصّلة ومطوّلة للسيّد المؤلف ذكرها بالكامل في الطّبعة الثانية . وفيما يلي نسجلها بالحرف .

« استغربت ما جاء في آخر صفحة ٤٩٩ من قولكم عن حيّ على خير العمل : وحُكي أنّ البيهقي من الشّافعية الخ مما يدل على عدم جزمكم بذلك مع أنّه مؤكد . قال البيهقي في سننه : إنّ علي بن الحسين كان يقول في أذانه : حيّ على خير العمل ، ونقل في الرّوض عن التّحرير بعدّة أسانيد في مسند ابن أبي شيبة أنّ عبدالله بن عمر كان يقول في أذانه : حيّ على خير العمل . وقال المحب الطّبري الشّافعي في كتاب إحكام الأحكام : ذكر الحيعلة بحيّ على خير العمل عن صدقة بن يسار عن أبي أمامة سهل بن حنيف أنّه كان إذا أذّن قال : حيّ على خير العمل . وروى ابن حزم في

كتاب الإجماع عن ابن عمر أنّه كان يقول : حيّ على خير العمل . وقال مغلطاي الحنفي في كتاب التّلويح : أمّا حيّ على خير العمل فذكر ابن حزم أنّه صحيح . وذكر سعد الدّين التفتازاني في حاشية شرح عضد الدين على المختصر في الاصول ج١ ص ٣٧٢ : حيّ على خير العمل كان ثابتاً على عهد رسول الله (ص) وإنّ عمر هو الّذي أمر النّاس أن يكفّوا عن ذلك مخافة أن يثبطوا عن الجهاد . والعبارة الّتي هي أمامي الآن في الكتاب المذكور للسعد : وكأنّه اعتبر ما يُروى أنّ عمر كان يقول : ثلاث كن على عهد رسول الله (ص) أنا احرّمهن وأنهى عنهنّ : متعة الحج . ومتعة النكاح . وحيّ على خير العمل » . قال صاحب الأعيان : انتهى ما كتبه إلينا هذا العالم الجليل . يريد المفتّي السنّي .

نقل العالم الشّيعي عن السنّة بحذر وتحفّظ ، فكتب إليه شيخ منصف من السنة وقال : « استغربت عدم جزمك بذلك مع أنّه موٴكد » ثم أورد العديد من الشّواهد والدّلائل على صحة « حيّ على خير العمل » .

لعلّي . ومن حيث لا أدري ، أطلقت هنا قلمي إعجاباً بموقف هذا الشّيخ الّذي أبى أن يخادع ويسكت عن الحق ، وهل الفضائل في مجموعها إلا معرفة الحق والعمل به والوقوف إلى جانب أهله وطلاّبه .

وبعد ، لو كان في امّة محمد (ص) العديد من أمثال هذا الشّيخ [1] لكانت خير امّة اخرجت للنّاس في كلّ مصر وعصر ، والمهم أن لا نرسل الحكم بالتعصّب مطلقاً على شيوخ السّنّة دون استثناء .

---

(١) أليس من الأجدر أن يعرف من هو ذلك الشيخ ومن غير شك أنه الآن لا يخشى عليه من ذكر الإسم ومعرفته باسمه نوع من تمجيد المجاهرة بالحق وتخليد لأصحابها .

ثمن الجنة

قطعت المسافة الطّويلة البعيدة بعد الصّبر المرير والعمل الدّائب . وتجاوزت ، بحمد الله ، العقبات الثّلاث : عقبة اليتم والتّشريد ، ثم عقبة الدّرس وطلب العلم ، وأخيراً عقبة التّأليف والنّشر ، وقد يغبطني على ذلك قريب أو بعيد .

وأشكر الله سبحانه على مننه وإحسانه . ولكنّي أتخوّف كثيراً يوم البعث والحشر .. وما تصوّرت موقفي بين يدي الله لنقاش الحساب إلا اهتزّ كياني من خشيته ، واضطربت أركاني من هيبته . وهذا ما دفع بي إلى زيارة سيّد الشّهداء (ع) في العشر المحرّم من كلّ عام منذ سنة ١٩٦٨ مستشفعاً بفضل الله وكرمه ، وبأهل الشّفاعة من صفوة خلقه .

ولا أدعو عند رأس الحسين إلا إذا خشع القلب ودمعت العين ، وهذا دعائي ولا أزيد عليه حرفاً واحداً : أنا لا أبكي عليك يا أبا عبد الله لأنّك في غنىً عن اللطم والبكاء ، فمقامك عند الله لا يصل إليه إلا من بذل في سبيل الله ما بذلت ، وإنّما أبكي على نفسي ، ومن ذنوبي وخطاياي عند مرقدك الشّريف راجياً أن تشفع غداً وتقول ساعة الحساب : دعوا هذا العبد لي ومن أجلي ، ولهذا وحده قصدتك ووفدت ضيفاً عليك ، فهل

تضيق برجائي هذا وسؤالي منك كلمة واحدة فقط لا غير تقولها غداً ؟.. وفي تقديري أنّك لا تبخل بها . كيف وقد جدت بلحمك ودمك وأهلك وأصحابك من أجل المساكين والضّعفاء ؟.

أبداً لا مغبوط ولا سعيد إلا من زحزح عن النّار . وسلام على من قال: « المغبوط من سلم له دينه . والسّعيد من وُعظ بغيره . والشّقي من انخدع لهواه وغروره » .

وأيّنا يعرف نفسه . ولا ينخدع لغروره وهواه ؟. وهل من سبيل للمرء إلى العلم بذاته إلا من خلال الآخرين . وبهذا نجد تفسير الحديث الشّريف « المُؤْمِنُ مِرْآةٌ لأخيه المُؤْمِنِ » والمراد بالمؤمن هنا الإنسان العاقل . وإنّما خَصّ المؤمن بالذّكر لأنّه يهدي المسترشد بصدق . ولا يغشّ المستنصح .

ويُروى أنّ سفيهاً من السّفهاء حاول أن يُغضب سلمان الفارسي ويستخفّه . فقال له : يا كلب . قال سلمان : أمامي صراط . إن تجاوزته فذاك وإلا فالكلب خير منّي . سلمان على عظمته عند الله يخاف الصّراط . ولا يدري هل يعبره إلى شاطئ الأمان . أو تزلّ به القدم . ونحن في طيش الهوى والغباء ؟ .

وقال لي قائل : هنيئاً لك ألّفت ونشرت ..

فقلت له : ليست العبرة بالكتاب والكتابة . بل بما يترك الإنسان لأخيه الإنسان من أثر جديد ومفيد ، فأديسون لم يترك كتاباً ، أو يكتب مقالاً ، ولكنّه أعطى الإنسانيّة الكهرباء والنّور ، ولولاه لم يكن هذا العالم الحديث ممكناً .

قال من هنّأ وبارك : وما رأيك بحديث « العُلَمَاءُ وَرَثَةُ الأنْبِيَاءِ» ؟

قلت له : وأيّ علماء تفهم من هذا الحديث ؟ ولعلّك فهمت الّذين غضّوا الأبصار عن سفك الدّماء والمظالم في شرق الأرض وغربها ، وأمسكوا ألسنتهم عن قوى الشّر . ولم يتّخذوا منها موقفاً واضحاً ، وإذا تكلّموا مجدوا الخير كمبدإ عام ، ودعوا إلى مكارم الأخلاق كمُثُل عايا دون أن يفهم من كلامهم أيّ شيء يدين الطّغاة وأعداء الإنسانية ، أو يشجّع المحقّين والمخلصين ، أو تفهم من كلمة العلماء كلّ من تعيقل وتعمّم ؟.

إنّ حديث العلماء ورثة الأنبياء يحدّد وظيفة العلماء بأنّها تماماً كوظيفة الأنبياء في التّبليغ والإجتهاد . وفي الصّبر وتحمّل الأذى من أجل الحقّ وإعلاء كلمته . وفي التّقى والزّهد في حطام الدّنيا . وفي الرّفق والتّواضع وإصلاح ذات البين .. وهذه مسؤولية ضخمة وعسيرة لا يقوم بثقلها إلا من انصرف بكلّه للحقّ وحده ، وتجرّد عن الهوى والغرض ، ولا يرى لمصلحته ومنفعة ذويه أيّة قيمة إذا كانت على حساب الآخرين والمستضعفين.

وأيّ عالم يُهمل ويُقصّر في وظيفة الأنبياء استحقّ لعنة الله وغضبه. وفي اصول الكافي عن المعصوم : « إنّ الله يَغْفِرُ لِلْجَاهِلِ سَبْعِينَ ذَنْباً قَبْلَ أنْ يَغْفِرَ لِلْعَالِمِ ذَنْباً واحِداً ، وإنّ عُلَمَاءَ السّوءِ عَلَيْهِمْ نَارٌ تَلَظّى » .

هذا هو معنى حديث: العلماء ورثة الأنبياء ، إنّه حجة عليهم ، ولا حجة لهم فيه إلا إذا فعلوا فعل الأنبياء والأوصياء ، إنّه يحرّم على كلّ عالم أن يتكلّم ويتحدّث باسم الله والدّين إلا على هذا الشّرط والأساس .

فقال من هنّأ وبارك : فهمنا المراد من العلماء في حديث الورثة ، فبأيّ شيء تفسّر حديث مداد العلماء كدماء الشّهداء ، أو توزن دماء الشّهداء مع مداد العلماء ، فيرجح مداد العلماء على دماء الشّهداء ؟.

قلت : هذا الحديث يفسّر نفسه . فإنّ تشبيه مداد العالم بدم الشّهيد يستدعي أمرين :

الأول – أن يكون لمداد العالم ما لدم الشّهيد من آثار وثمار في نصرة الحق والعدل ضدّ الجور والباطل .

الثاني – أن يكون قصد العالم من كتابه وكتابته تماماً كقصد الشّهيد الّذي أفصح عنه بقوله :

ولست ابالي حين اقتل مسلماً على أيّ جنب كان في الله مصرعي

وهذا البيت من أبيات للصّحابي الأنصاري الأوسي خبيب بن عديّ . وقد شهد بدراً مع رسول الله (ص) ، وقتل من المشركين الحرث بن عامر. وفي سنة ثلاث للهجرة وفد على الرّسول (ص) رهط من قبيلتي عضل والقار ، وقالوا : يا رسول الله إنّ فينا إسلاماً ، فابعث إلينا نفراً من أصحابك يفقّهوننا في الدّين ، ويقرئوننا القرآن ، ويعلّموننا الشّرائع ، فبعث معهم سبعة من أصحابه ، منهم خبيب بن عديّ وزوّدهم بنصائحه.

ومضى القوم حتّى إذا كانوا على الرّجيع – وهو ماء لهذيل بناحية الحجاز – غدر أولئك بأصحاب محمد (ص) ودلّوا عليهم قبيلة هذيل المشركة ، فجاء منها حوالي مئتي مقاتل ، ودارت معركة طاحنة انتهت بقتل رجال النّبي (ص) واسر خبيب بن عديّ ، فاشتراه عقبة بن الحرث ابن عامر ليقتله بأبيه الّذي قتله خبيب يوم بدر .

قال ابن عبد البر في الإستيعاب : حين خرجوا بخبيب ليقتلوه قال : دعوني اصلّي ركعتين ، وبعد الصّلاة قال : لولا أن تروا أنّي جازع من الموت لزدت ، فكان أول من سنّ الرّكعتين قبل القتل ، ثم أنشأ عشرة أبيات ذكرها ابن عبد البر ، منها :

لقد جمع الأحزاب حولي وألّبوا | قبائلهم واستجمعوا كلّ مجمع
وقد عرضوا بالكفر والموت دونه | وقد ذرفت عيناي من غير مدمع
وما بي حذار الموت إنّي لميت | ولكن حذاري حرّ نار تلفّع
فلست بمبد للعدوّ تخشّعاً | ولا جزعاً إنّي إلى الله مرجعي
ولست ابالي حين اقتل مسلماً | على أيّ جنب كان في الله مصرعي

ليس المهم أن يسلم من القتل ، فكلّ نفس ذائقة الموت . وإنّما المهم عند المسلم الحق أن يموت أو يقتل راضياً مرضيّاً عند الله . وأيضاً لايجزع من ضرب السّيوف وطعن الرّماح ، بل من غضب الله وناره اللافحة اللافعة . قُتل خبيب في سبيل الله بعد أن قتل من المشركين من قتل بين يدي رسول الله (ص) وصدق عليه قوله تعالى : « إنّ الله اشْتَرَى مِنَ المُؤْمِنِينَ أنْفُسَهُمْ وَأمْوَالَهُمْ بأنّ لَهُمُ الجَنّةَ يُقَاتِلُونَ في سَبِيلِ الله فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً في التّوْرَاةِ وَالإنْجِيلِ وَالقُرْآنِ وَمَنْ أوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ الله فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الّذي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الفَوْزُ العَظِيمُ — ١١١ التّوبة » .

هذا هو ثمن الجنّة والفوز بها ، أن تكافح وتناضل في سبيل الله والحق ، ومن أجل حياة أفضل ، لا أن تكتب وتخطب وكفى ، أو تحمل لقب إمام أو مجتهد أو مرجع أعلى ، ثمّ لا يرهبك ظالم ، ولا يأمل بك مظلوم ... أبداً لا شأن عند الله سبحانه لمن يهادن الطّغاة ، ولا شيء عنده لمنكوب ومظلوم إلا أن يدجل أو يحوقل ، حتى كأنّ الدّين لم يطلب منه شيئاً إلا أن يمدّ يده للتّقبيل أو قبض الأموال والحقوق !.

مسيحي في كربلاء يبكي الحسين (ع)

سلطان الحقيقة :

مهما اختلف النّاس في الآراء والمعتقدات . وفي الأذواق والرّغبات فإنّ الحقائق الإنسانية تفرض نفسها على العموم . ويعترفون بها من حيث يريدون أو لا يريدون ، لأنّها تنبع من فطرة الإنسان وضميره من حيث هو إنسان ، ولا يختلف فيها اثنان على وجه الأرض . وأيّ عاقل يجادل في الثّورة على الظّلم والجور ، والتّضحية في سبيل الحرّية والعدل والمساواة؟ وهل يتجنّس الحق والخير والجمال بدين أو بمذهب ، أو يتحوّل الإنسان عن طبيعته إلى طبيعة ثانية إذا هو دان بالإسلام أو المسيحية ؟ وأيّ شعب لا يقدّس الأبطال والشّهداء ملحداً كان أو مؤمناً ، جاهلاً أو متعلماً ؟.

إنّ القضايا الإنسانيّة الفطريّة مشاعة بين النّاس ، كلّ النّاس ، تثبت نفسها بنفسها ، وبها يستدلّ على الحق ، ولا يستدلّ عليها بشيء لأنّها تحمل في طبيعتها السّبب الكافي لصدقها ، وكلّ القياسات النّظرية تنتهي إليها وإلا بقي العلم والمعرفة طيّ الكتمان والعدم .

حافظ إبراهيم خير الله :

الاستاذ حافظ إبراهيم خير الله صحفي لامع وشهير . وهو مسيحي أرثوذكسي لبناني ، مستقيم الرّأي ، وراسخ العقيدة بلا جمود وتعصّب . ينظر إلى الأديان بالكامل على أنّها وسيلة إلى هدف واحد . هو هدي البشر وإسعاده ، وبثّ روح الفضيلة بين أفراده ، ولكن ــ كما قال « عنده عقدة نفسيّة تعود إلى أنّه لم يَعرف القدس وبيت لحم والنّاصرة » وهو يتوق إلى هذه الأماكن وزيارتها . ولا يجد إليها مذهباً ما دام الصّهاينة يدنّسون ترابها بأقدامهم .

وأخيراً اهتدى الطّريق . وعزم أن يردّ لهفته ويشبع رغبته بزيارة الحرم الحسيني في كربلاء ، والحرم العلوي في النّجف ، وحين رآهما اجتاحت نفسه انفعالات عارمة . سجلها في مقال جذّاب أخّاذ . يضع القارىء في نفس الجوّ والمناخ ، ويريه الصّورة الواقعيّة ، ويثير في نفسه كلّ ما اختلج في قلب الكاتب وأحشائه تماماً كما لو كان إلى جنبه يرى ما رأى . ويسمع ما سمع .. ونشر هذا المقال في مجلة الحوادث تاريخ ٥ ــ ٩ ــ ١٩٧٥ . وفيه من جملة ما فيه :

« الرّعشة لا بدّ منها .. إطلال مآذن كربلاء عليّ من بعيد .. والمقبل إلى العتبات المقدّسة في العراق يرتعش لأنّه مكان محجته .. دخلت إلى مقام الحسين فصعقت وذهلت .. هوذا من استشهد فأصبح رمزاً للإنتفاض على الظلم ، هوذا من استشهد في سبيل العدل وترك الملايين تتطلّع إليه مثالاً للإنسان الّذي أفنى جسده في سبيل الكمال البشري .. المسألة لم تعد تتحمّل علامات استفهام .. بعد ربع ساعة وجدت نفسي أبكي ثم أبكي ثم أبكي » .

وأنا ، حفظك الله يا خير الله ، لم أملك عَبرتي حين قرأت لك هذه

الكلمات الدّامية الثّائرة ، وأحسب أنّي واحد من عشرات البواكي على بكائك ، ومن قرّائك .

وكلّ النباتات لها جذور وجذوع . ولكنّها لا تزهر وتثمر إلا أن يعمّها الغيث كما قال سبحانه : « وَتَرَى الأَرْضَ هامِدَةً فإذَا أنزَلْنَا عَلَيْهَا المَاءَ اهْتَزّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كلّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ـ ٥ الحج» ورؤية الشّهيد ومرقده غيث يحيي النّفس وما يكمن في أعماقها من قوّة وشجاعة لا تهاب أحداً غير الله ، ومن حبّ وتقدير لكلّ مناضل ومجاهد. ومن كراهية لكلّ طاغية وخائن . وإذن فلا بدع أن يتّعظ مسيحيّ متديّن بحرم الحسين ويريق الدّمع على مرقده ويقول ما قال الاستاذ الحافظ : « كلّ من جاء إلى هنا جاء لتحسين مرآة الضمير والوجدان في نفسه » .

ثورة الحسين قرآنية محمدية :

وقال الاستاذ حافظ إبراهيم : « الحسين استشهد بعد أن شهد مصرع رجاله وأطفاله .. وبقي وحده في المعمعة .. جاءته ضربة فتلقفها طفل كان في حضنه فقتلته .. حتّى اللحظة الأخيرة من حياة الحسين بقي يشهد ظلم الإنسان للإنسان . كثير والله هذا .. الحسين والشّيعة قبل لينين والشّيوعية بألف وثلاثمئة سنة ، عندنا من تراثنا ما هو أهم بكثير » .

نحن الشّيعة نؤمن ونوقن بأنّ الحسين امتداد لجدّه رسول الله لحديث: « حُسَيْنٌ منّي وَأنَا مِنْ حُسَيْنٍ » وَإنّ الثّورة على الطّغاة والمترفين، كما يسمّيهم القرآن الكريم في العديد من الآيات هي ثورة قرآنيّة محمديّة حيث ربط القرآن الكريم بين الإيمان والقتال في سبيل الله والمستضعفين ، وقال في الآية ٧٥ و٧٦ من النّساء : « مالَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ في سَبِيلِ

الله وَالمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالوِلْدَانِ .. الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ» والطّاغوت من طغى وبغى ، واتّبع الشّيطان والهوى .

وعليه فإنّ ثورة الحسين ليست نقطة البداية في الإسلام ، ولا هي من رأي الحسين واجتهاده ، بل وحي من الله ، ونتاج لدين الإسلام والقرآن نصّاً وروحاً ، ولا شيء للحسين منها إلا التّطبيق والتّنفيذ وإلا أنّه ترجم القرآن بلحمه ودمه ، كما شرحت وأوضحت في كتاب « الحسين والقرآن ».

في النجف والكوفة :

ثمّ توجه خير الله من كربلاء إلى النّجف والكوفة ، وزار الحضرة العلويّة ومسجد الكوفة وكتب : « قمة الخشوع في المكان الّذي استشهد فيه الإمام عليّ الّذي رافق رسول الله ٣٣ سنة . هنا اغتيل سيّد نهج البلاغة . وقفت نصف ساعة . الصّمت أبلغ من الكلام في مقام سيّد الكلمة .التّأمل والتّذكر أفضل رياضة روحيّة حيثما استشهد عليّ .. المقاتل في سبيل الرّسول والمقتول في سبيل الإسلام ... أودّعك أيّها الإمام معاهداً إيّاك بزيارة بل بزيارات كلّما سنحت الفرصة ».تماماً كما يقول شيعة عليّ والحسين بعد الزيارة وعند الوداع .

وبعد ، فإنّ مقال الاستاذ حافظ إبراهيم خير الله يكشف عن عاطفة إنسانية مشبعة بالصّدق والصّفاء والحبّ والإخاء ، ويدلّ دلالة قاطعة على أنّ الأديان بطبعها تجمع ولا تفرّق ، وتبشّر ولا تنفّر ، وأنّ المصالح والأغراض الشّخصية هي الّتي تحدث الشّحناء والعداء بين الإنسان وأخيه الإنسان حتّى ولو كانوا على دين واحد . ألم يقتل قابيل هابيل منذ النّشأة الاولى لأبناء آدم ، وهما من نطفة واحدة ، وعلى دين واحد !.

نافذة على العالم الاسلامي
في عهد إسرائيل

عدد المسلمين :

يضم العالم من المسلمين أكثر من ٧٠٠ مليون . وقيل ألف مليون كما في مجلّة المصوّر المصريّة ت ٩ – ٨ – ١٩٧٣ ؛ أغلبهم في آسيا وأفريقيا ؛ ويملك المسلمون وبخاصّة العرب ثروة في جوف الأرض تجعلهم أغنى من عليها ، وأهم ما ظهر منها حتّى الآن البترول . ولعلّ ما يكشف القناع عنه غداً أو بعد غد أهمّ وأعظم ، أمّا موقع البلاد الإسلاميّة والعربية من العالم فهو موقع القلب والحزام من جسم الإنسان .

الدّول الإسلاميّة :

ويحكم المسلمون الآن أكثر من ٣١ دولة إسلامية ، منها أندونيسيا وباكستان وبنكلادش وتركيا وإيران وأفغانستان وماليزيا ومصر والعراق وسوريا والاردن واليمن والسّعودية والكويت والسّودان وليبيا وتونس والجزائر والمغرب وموريتانيا والصّومال – ٩٩ بالمئة – ومالي والسنغال

وغينيا ونيجيريا والكمرون . ومن بين هذه الدّول الإسلامية ثلاث دول رئيسها غير مسلم ، وهي مالي ونيجيريا والسّنغال فراراً من تنافر المسلمين على الرّياسة .

المسلمون في سائر الدّول :

في روسيا ٢٥ مليون مسلم . ومثل هذا العدد في الصّين الشّعبية . و٣ ملايين في الصّين الوطنية (فرموزا) ومليون ونصف في الفلبين . و٣ ملايين في تايلاند ، و٤٣ مليوناً في الهند ، ومليونان في بورما ، ومليون في ألبانيا . ونصف مليون في سيلان ، ومليون في تشاد ، ومثل ذلك في أوغندا ، ومليونان في تنجانيقا ، ونصف مليون في سنغافورة ، ومليونان في يوغوسلافيا ، ومليون في كمبوديا ، أما في أثيوبيا فيقدّر عدد المسلمين بنصف السّكان الّذين يتراوحون بين ١٢ — ١٨ مليوناً .

وينتشر المسلمون في جميع دول الأرض . ويرتفع عددهم في بعضها — غير المشار إليها — إلى مئات الالوف . ويهبط في بعضها إلى بضعة آلاف .

الدّاء في الرّأس لا في الجسد :

٧٠٠ مليون مسلم ،وأكثر من ٣١ دولة إسلامية،وثروة أشبه « بخاتم لبيك السّحري » ولولاها لم يكن العالم الحضاري الحديث ممكناً ، ولا صعدت الولايات المتّحدة إلى القمر ، كلّ هذه القدرات والإمكانات ولا أثر للمسلمين على أيّ مستوىً يُذكر !. أللهم إلا مؤتمرات وصرخات لاشيء وراءها إلا الشّماتة والفضيحة .

وأيّ عار وهوان على العرب والمسلمين أشدّ وأعظم من هوانهم على

إسرائيل ؟.. أبداً كلّما عقدوا مؤتمراً تمادت إسرائيل في الغي والتّوسع. وكلّما رفعوا صوتاً استهانت بهم وبكلّ حقّ وشرعيّة ، ولا سرّ إلا الأوضاع الفاسدة السّائدة في كلّ بلد إسلاميّ . وقطر عربيّ .. أمراء وسلاطين . ومشايخ ومشعوذون ، وولاء وتبعيّة . وجهل ورجعيّة . وخلاف وصراع فيما بينهم أشدّ ممّا بينهم وبين إسرائيل ، وكلّ حاكم وقائد يتّخذ منها ميداناً للمزايدة والمداورة ، وساحة للمداهنة والمناورة .

أمّا حرب تشرين فإنّها لا تعني شيئاً إلا أنّ العرب قادرون على النّصر وغسل العار لو شاءوا وصبروا صبر الأحرار. ولكن أبى من أبى إلا سياسة الخطوة خطوة إلى المذلّة والإستسلام ، وهنا يكمن الدّاء ، وإنّه في الرأس لا في الجسد ، في القيادة والقائد لا في الشّعب المقود .

حول حرب تشرين :

بعد حرب تشرين ٧٣ بأمد قصير جمعتني الصّدفة وبعض الأساتذة فسألني : كيف رأيت حرب تشرين ؟.

قلت : لا أُغالي في نتائجها كما فعل من أفرط وتوهم ، ولا أُقلّل من أهميتها في جهة واحدة ، وهي أنّ كثيراً من النّاس تصوّروا أنّ الإنسان الفيتنامي معجزة أو لغز من طبيعة أبعد ما تكون عن طبيعة إنسان القرن العشرين ، وعذرهم في هذا الوهم والتّصوّر أنّ القنابل الإميركية الجهنميّة كانت تفجر في الفيتنامي المحارب القوّة والحياة بدلاً من الموت خوفاً أو الإستسلام ، وكلما اشتدّ القصف وتضاعف ازداد الفيتناميّون ثباتاً وصلابة. أفقر وأضعف شعب يتحدّى أغنى وأقوى دولة في العالم عسكريّاً واقتصادياً وتقدّماً في أسلحة الدّمار والإبادة ويقهرها وينتصر عليها !.. إذن هناك سرّ وعصاً سحريّة !.

ولكنّ الجندي المصريّ هتك هذا السرّ . وأحرق العصا السّاحرة حين عبر القناة وحطّم خطّ بارليف بساعات . وأثبت للعالم أنّ الإنسان واحد بطبعه فيتنامياً كان أم غير فيتناميّ أسود أو أبيض أو أصفر . وأنّ مسألة النّصر والثّبات في الجهاد هي مسألة القائد وإخلاصه وذكائه ، وشجاعته وخططه .

ولا عارف منصَف يشك في أنّ الجيش المصريّ لولا وقف القتال لاحتل تل أبيب مهما كانت التّضحيات .. ولو أنّ الفيتناميين جاءوا إلى السّويس وعبروا القناة ودمّروا خطّ بارليف كما فعل المصريّون — لأصبحت الأُسطورة الفيتنامية ديناً وعقيدة .

ولما انتهيت من جوابي هذا تساءل ثانية وقال : ولكنّ الجسر الجوّيّ الحربيّ الّذي أقامته أمريكا بينها وبين إسرائيل كشف أنّ المصريين كانوا يحاربون أمريكا لا إسرائيل !.

قلت : وهل كان الفيتناميّون يحاربون أمريكا وجهاً لوجه أم إسرائيل ؟ وكيف ثبتوا لمليون ونصف مسلّحين بأحدث الأسلحة ، ولم يأخذهم الفزع والهلع من جبروت أمريكا وطغيانها ؟ وهل لا يسوغ الدّفاع عن الأرض والوطن وعن الحرية والكرامة إلا إذا كان المعتدي إسرائيلياً ، أو أنّ الحرب ضدّ أمريكا حرام محرّم على المؤمنين والطّيبين ؟.

الدّول الإسلامية وإسرائيل :

ولإسرائيل أمتن الصّداقات وأطيب العلاقات مع العديد من الدّول الإسلامية ، وتتّخذ منها وسيلة للعمل ضدّ العرب على جميع المستويات . وقد استأجرت إسرائيل أو استغفلت بعض القادة المسلمين لموازرتها على

الضّلال وحرب الإسلام ومقدّساته . فقد أعلن بكلّ وقاحة رئيس من رؤساء الوفود الإسلامية في المؤتمر : « إنّنا جئنا من أجل المسجد الأقصى . وليس من أجل إسرائيل » .

وتقوم إسرائيل في بعض الدول الإسلامية بأعمال لا تخطر على بال . وتبدأ نشاطها بمكتب اقتصادي ، ثم بوكالات للشّركات وتستمر في التغلغل حتّى تصل إلى أهدافها كاملة . وتساعدها في ذلك أمريكا وبريطانيا وكثير من الدّول الغربية .

فمتى نواجه هذه الحقيقة مواجهة واعية حاسمة . ونتخلّص من الخونة والسّماسرة ؟. إنّ التّاريخ لا يتحرّك تلقائيّاً إلى الأمام ، وكم له من نكسات على أيدي الّذين يصدّون عن الحقّ ويبغونها عوجاً ؟ ولا سبيل إطلاقاً لتقدّم الإسلام والمسلمين إلا بإرادة الإتحاد والتصميم على الجهاد . **وبكلمة** التّاريخ لا يتحرّك آليّاً بل بإرادة الإنسان فهي الّتي تسيّره إلى الوراء أو إلى الأمام .

مصادر البحث :

مجلّة المجلّة المصريّة تشرين الثاني سنة ١٩٦٣ وتشرين الأول سنة ١٩٦٦ وجريدة أخبار اليوم المصريّة ت ٢٧ ـ ٩ ـ ٦٩ والأهرام ٢٥ ـ ١٢ ـ ٧٢ .

القرآن ومصدر المعرفة

الرّسالة العامة :

القرآن كتاب الله للعالم كلّه ، لا لجيل دون جيل ، ولا لأُمّة دون أُمّة . ومن أجل هذا أسقط من تعاليمه ومبادئه كلّ ما هو خاصّ . وأبقى كلّ ما هو عام بين النّاس جميعاً . ومن آياته : « وَأنْ لَيْسَ للإنْسَانِ إلاّ ما سَعَى .. قَدْ أفْلَحَ مَنْ تَزَكّى .. لاَ يَصْلاهَا إلاّ الأشْقَى .. فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهْ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهْ » .

وخاطب سبحانه نبيّه المرسل بقوله : « وَمَا أرْسَلْنَاكَ إلاّ كَافَةً لِلنّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً – ٢٨ سبأ » . ومن كان رسولاً لكلّ النّاس يجب أن يملك كلّ وسيلة من وسائل الإقناع كما تومىء الآية ١٢٦ من النّحل : «أُدْعُ إلى سَبِيلِ رَبّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالمَوْعِظَةِ الحَسَنَةِ وجَادِلْهُمْ بِالّتِي هيَ أَحْسَنُ إنّ رَبّكَ أعْلَمُ بِمَنْ ضَلّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ » .

والجدال بالّتي هي أحسن أن تخاطب النّاس بما يحسّون ويرون ،

وما يعقلون ويدركون . وأن تدخل في حسابك أهل الأديان السماوية أيضاً وتحتج عليهم بما يدينون ويعتقدون . ولا تعتمد على الحسّ فقط كما فعل الماديّون والتجريبيّون . ولا على العقل وحده كما فعل المثاليّون والعقليّون . ولا تناطح كلّ دين سماويّ كما فعل الشّيوعيّون والوجوديّون لأنّ ذلك نقض للرّسالة العامّة التي لا تحيا ولا تنتشر إلا بالموعظة الحسنة والجدال الأحسن والأكمل .

ومن هنا اعتمد القرآن الكريم في الإقناع على هذه الوسائل الثلاث . واعتبر من لا يقتنع بها ويجادل بغيرها جهولاً عنوداً . قال سبحانه : « وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ في الله بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلاَ هُدًى وَلاَ كِتَابٍ مُنِيرٍ – ٨ الحج » والمراد بالعلم هنا : الحسّ والتّجربة ، وبالهدى العقل ، وبالكتاب المنير : الوحي عند من يؤمن به . والتفصيل فيما يلي :

الحسّ والتجربة :

كلّ ما يقع في الاذن أو تراه العين أو تلمسه اليد أو يشمّه الأنف أو يتذوّقه الفم فهو من المسلّمات الأوّليّة عند جميع العقلاء من حيث هم عقلاء مؤمنين أم ملحدين أقوياء أم مستضعفين ، وأيّ علم يستند إلى التّجربة والمشاهدة يسمّى بالعلم التجريبي والإستقرائي لأنّه يبدأ من ملاحظة الظواهر واستقرائها صعوداً من الخاصّ إلى العام . من الجزئيّات إلى الكلّيّات – مثلاً – نرى الماء يتجمّد بالبرودة عند درجة معيّنة ، وتتكرر الرّؤية ، فنستنتج قاعدة كليّة ونقول : كلّ ماء يتجمّد بالبرودة إذا بلغ هذه الدّرجة .

وقد أنكر سبحانه على الذين يرتابون ويشككون في معطيات الحواس . ووصفهم في العديد من الآيات بمرضى القلوب ، وبالصمّ والبكم والعمي

فهم لا يعقلون ، أما خطأ الحس حيناً كروية الشّمس قرصاً فيمكن تداركه بالعقل والأجهزة العلميّة .

العقل :

أما العقل فهو الأصل الأصيل لكلّ برهان ودليل ، فالحواس بلا عقل ومعرفة تملكها الحشرةَ والذّبابة ، ولا وحي بلا شاهد عليه من العقل ، كيف ولا سبيل إطلاقاً لإثبات الخالق وإرسال رسله وإنزال كتبه إلا العقل، ومن هنا يعتبر القرآن الكريم إهمال العقل وعدم إعماله وإتباعه ، ذنباً كبيراً يستحقّ المهمل عليه العذاب الأكبر ، قال سبحانه حكاية عن أهل النّار : « وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ – أي نستعمل عقولنا – ما كُنَّا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقاً لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ – ١١ الملك » .

وقد تتبع بعض العلماء آي الذّكر الحكيم فوجد للعقل ومشتقّاته ومترادفاته ٨٠ كلمة يربط القرآن بمدلولها العقيدة والأخلاق والتّشريع وخلق الكون والإنسان والحياة وشؤونها .

والوحي حجة لازمة على من يؤمن به ، ومن هنا احتج القرآن على أهل الكتاب بكتابهم المقدّس وقال لهم وللعالم كلّه : « الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ – الضّمير لرسول الله محمد (ص) – كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقاً مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ – ١٤٦ البقرة ».

الوحي :

والوحي والعقل متعاضدان ، ويستحيل أن يعارض أحدهما الآخر ..

أبداً لن يقول العقل شيئاً ، ويقول الدّين شيئاً خلافه ، قال الشّيخ الأنصاري الكبير في كتابه المعروف بالرّسائل باب القطع : « كلّما حصل القطع من دليل عقليّ فلا يجوز – أي لا يمكن – أن يعارضه دليل نقليّ . وإن وجد ماظاهره المعارضة فلا بدّ من تأويله إن لم يمكن طرحه . وكلّما حصل القطع من دليل نقليّ فلا يجوز أن يحصل القطع على خلافه من دليل عقليّ». والسّرّ في ذلك أن كلاّ من العقل والوحي يهدف إلى خير الإنسان ومصلحته.

ويجدر التّنبيه إلى أنّ العالم بالغاً ما بلغ من العلم فهو غير معصوم عن الخطأ حتّى ولو استند إلى الحسّ والتّجربة ، وإلى الأوّليات وبديهة العقل . وإلى الوحي القطعي سنداً ودلالة ، لأنّ العالم يقف عند السّطح والظّاهر ، فإذا علم وقطع بشيء فعلمه وقطعه لا يتجاوز المدلول الظّاهري ، أما الواقع كما هو عند الله سبحانه فاحتمال الخطأ قائم في إصابة العالم له إذ ليس في مقدور أحد من البشر مهما جدّ واجتهد أن يبلغ درجة العصمة إلا أن يشاء الله .

وقد شاهدنا بالعيان والوجدان أنّ المرء كلّما ازداد علماً توقّع الخطأ من نفسه ، واتّسع صدره للنّقد . وكلّما قلّ علمه ازداد غروراً وإصراراً على أنّه ينطق بالحقّ الذي لا ريب فيه !.

أهل البيت وإحصاء العلوم :

حاول القدامى أن يحصوا العلوم ويحصروها بعدد معيّن ، وسوّدوا في ذلك الصّفحات ووضعوا الكتب ، ومنها كتاب إحصاء العلوم للفارابي ، ومع الأيّام ظهر الخطأ في هذه الفكرة [1] وتراكمت العلوم الحديثة ،

(١) غير بعيد أن يكون مراد الفارابي بالإحصاء علوم زمانه فقط .

فمن علوم الكهرباء إلى علوم البترول . ومنها إلى علوم الذرّة والفضاء . وغداً علوم القمر . وبعدها علوم الزّهرة والمرّيخ .. إلى ما لا نهاية .

وأوّل من أشار إلى هذه الحقيقة – فيما قرأت وعلمت – الإمام أمير المؤمنين ، ومن بعده حفيده الإمام جعفر الصّادق عليهما السّلام ، فقد جاء في مستدرك نهج البلاغة : « العِلْمُ أكْثَرُ مِنْ أنْ يُحْصى » والمراد جنس العلم لا أفراد العلم الواحد لأنّ كلّ جنس ونوع لا تُحصى جزئيّاته وأفراده علماً كان أم غير علم .

وجاء في أُصول الكافي ج١ ص ٢٢٥ طبعة سنة ١٣٨٨ هـ : أنّ الإمام الصّادق (ع) قال : « لَقَدْ أعْطَى الله مُحَمّداً (ص) جَميعَ ماأعْطى الأنْبِياءَ مِنْ عُلُومٍ ، وَنَحْنُ وَرِثْنَا مُحَمّداً (ص) وَعِنْدَنَا صُحُفُ ابْرَاهِيمَ وَألْوَاحُ مُوسى . فقال أحد أصحاب الصّادق : هذا هو العلم – أي كلّ العلم – فقال الإمام : لَيْسَ هذَا هُوَ العِلْمُ . إنّمَا العِلْمُ مَا يَحْدُثُ بِاللّيْلِ وَالنّهَارِ يَوْماً بَعْدَ يَوْمٍ وَساعَةً بَعْدَ ساعَةٍ »

ومعنى هذه الرّواية بظاهرها أنّ العلم من حيث النّوع والصّنف سلسلة تتجدّد حلقاتها مع السّاعات واللحظات ، وأنّ الأنبياء والرّسل يعلمون القليل من هذه الحلقات كما نطقت الآية ٨٥ من الإسراء : « وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ العِلْمِ إلاّ قَلِيلاً » والآية ١١٤ من طه : « وَقُلْ رَبّ زِدْني عِلْماً» والآية ٧٦ من يوسف : « وَفَوْقَ كُلّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٍ » . ومن كلّ ذلك يسوغ لنا أن نقول في حدّ العلم من حيث أنواعه وأصنافه : أنّه لا يحدّ بحدّ ولا يحسب بِعَدّ .

العلم والمسلم والمسلمة :

قضيت سنة ١٩٧١ بكاملها في قم، وكان التّأليف والتّدريس والمذاكرة شغلي الشّاغل،وفي ذات يوم استشهدت في حديثي وحواري بحديث « طلب العلم فريضة على كلّ مسلم ومسلمة » معتمداً على رواية الحافظة والذّاكرة. فقال أحد الشّيوخ : إنّ النّبي (ص) لم يعطف المسلمة على المسلم . فشككت في ذاكرتي وروايتها ، وبحثت في مصادر الحديث ، وإذا برواية في كتاب مصباح الشّريعة ص٤ و٤١ طبعة سنة ١٣٧٨ هـ، وهذا نصّها : « قال الإمام جعفر الصّادق (ع) قال رسول الله (ص) : طَلَبُ العِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلى كُلّ مُسْلِمٍ وَمُسْلِمَةٍ » . وأيضاً رأيت هذا الحديث في كتب أُخرى بلا عطف المسلمة على المسلم .

ولا تعارض بين الرّوايتين لأنّ اللقب لا مفهوم له — مثلاً — قول القائل : قام بكر لا يفهم منه أنّ زيداً لم يقم . هذا ، إلى أنّ كلمة « فريضة» توحي بأنّ العلم في هذا الحديث يراد منه كلّ علم يحتاج النّاس إليه ولا يصح العمل إلا به ، والمسلمة مكلّفة بالعمل ولا عمل بلا علم ، وإذن فهي مكلّفة بالعلم ، فتكون مشمولة بالحديث ولو بتنقيح المناط ، أو بقيام الإجماع على عدم الفصل في التّكاليف الشّرعية بين الذّكر والانثى أو غير ذلك مما يمكن أن يقال حول قوله تعالى : « وأَقِيمُوا الصّلاةَ وَبَشّرِ المُؤمِنِينَ — ٨٧ يونس » .

الألقاب

جنّة الأساطير :

أنا أكره الألقاب وأشعر بنوع من الكراهية الصارمة لمن يحبّها ويتهالك عليها ، وأراه شيئاً غريباً ومنفصلاً عن واقعه ، وكلّ إنسان ينفر بفطرته ممن يخرج عن الإعتدال إلى التّطرّف في أيّ شيء كان . إنّ معرفة النّفس وتقديرها بما تستحق هي الخطوة الأُولى في طريق النّجاح وانسجام المرء مع نفسه وواقعه .

ومن أعطى نفسه فضائل ليست فيها فقد عاش في جنّة الأساطير تماماً كذاك الطّفل المدلّل الّذي سأل أباه أن ينزل القمر من كبد السّماء ليلعب به « فطبولاً » أو كهذا الشّيخ الذي كتب بالخطّ الطّويل العريض على ما جمع وطبع « تصنيف فلك الفقاهة ، سلطان قلم التحقيق والنباهة ، شيخ الطّائفة ، وقدوة مجتهدي الفرقة المحقّة، نائب الإمام، وباب الأحكام، غياث المسلمين وحجة الإسلام ، آية الله في الأنام الفقيه المخالف لهواه الخ». قطب وفلك وسلطان وغياث وباب وآية ونائب وحجة .. ولا مدلول وراء ذلك إلا الأحلام ومضغ الكلام !. ولا أدري كيف وصف هذا الشّيخ نفسه بالعلوّ والشّموخ أو رضي به – على فرض أنّه من غيره – وهو مخالف

لهواه وزاهد في الرّفعة والجاه ؟. ولهذا الشّيخ المغرق في المتاهات أكثر من شبيه . وياللأسف .

المصفّقون والمنافقون :

إنّ مكانة الإنسان وشخصيّته تنبع من ذاته ومواهبه لا من الأزياء والألقاب ، ولكنّ الّذي يشعر بالنّقص في نفسه قد يخيّل إليه أنّ الكلمات والألقاب تسدّ ما فيه من فراغ . قال فيلسوف صيني : بعض الصّغار يعاني من أوهام العظمة ، فيتزيّا بالعديد من الأزياء الفارغة كتلك المرأة تحاول التّدليل على مكانتها بما تحمله من جواهر . أو ذاك التّافه يتصوّر نفسه من الخالدين ، فيفقد طبيعته كإنسان ، وقد تصفّق له النّظارة وتهلل ، ولكن كلما زاد عدد المصفّقين والهاتفين زاد عدد المداجين والمنافقين وراء الكواليس .

الذّهب علامة التّحقير :

قرأت في جريدة الأهرام المصرية تاريخ ١٢- ٤- ١٩٧٤ مايلي بالحرف

في الحياة المثلى الّتي صوّرها تومس مور في كتاب « يوتوبيا » [١] وتومس هذا إنكليزي من القرن الخامس عشر : لا يكون للمال دخل في تقدير النّاس ارتفاعاً وانخفاضاً ، فقد يتكدّس الذّهب أكواماً عند إنسان لاقيمة له بمقياس الحياة المهذّبة ، وكذلك قد لا يملك إنسان آخر قيراطاً واحداً من الذّهب ، ولكنّه بمقياس تلك الحياة يحتل المكانة العليا .

---

(١) كلمة يونانية ، وترجمتها المدينة الفاضلة .

لقد خشي أهل « يوثوبيا » أن ينخدع بعض النّاس ببريق الذّهب فيأخذون في جمعه وتكديسه . فقرّروا أن تصاغ من الذّهب قيود المجرمين وأغلال المساجين . فعقاب الجريمة الفلانية قرط من ذهب يُعلّق بالاذن . وعقاب الجريمة الاخرى حلقة من ذهب يخرم بها الأنف . أو عقد يطوّق به العنق، أو سوار يدور حول المعصم. وبهذا أنزلوا من قيمة الذّهب حتّى جعلوه علامة التّحقير ومِوضع السّخرية والإزدراء .

ولقد حدث ذات يوم أن بعثت بعض الدوّل الأجنبية بسفرائها إلى أرض يوثوبيا . وكـــان هؤلاء السّفراء مثقلين من الذّهب في أعناقهم وعلى صدورهم ظنّاً منهم أنّ ذلك يرفع منزلتهم في أعين يوثوبيا ، ولكن شدّ ما دهشوا حين رأوا أنّ الذّهب هناك سمة المجرمين ولعبة الأطفال ، وحين مرّ موكب السّفراء صاح طفل قائلاً : كم بلغ هؤلاء من الجرائم ؟.

ودهش أهل يوثوبيا أن يقيس النّاس في البلاد الاخرى منزلة الرجل بنسج ردائه ، فإن كان الرّداء دقيق الغزل كان لابسه شريفاً نبيلاً ، وإن كان غليظ الخيوط كان صاحبه من عامة النّاس .

وتساءل أهل يوثوبيا قائلين في عجب : أما يدري هؤلاء أنّ الصّوف كان غطاء لجلود الخراف ، وأنّ الخراف بصوف جلودها في منزلة سواء؟ وتندر أهل يوثوبيا فيما بينهم بما سمعوه عن سكان البلاد الاخرى من أنّ الغبيّ الأبله يمكنه أن يستذلّ من هم أحكم منه وأعلم وأعقل إذا كان في حوزته كومة من الذّهب ، فإن تحولت كومة الذّهب إلى خادمه أصبح من فوره سيّداً . والسيّد خادماً .

العرب والألقاب :

كان أكثر العرب قبل الإسلام أهل بادية يعيشون حياة بدائية قبلية . ومع ذلك كانوا أهل ذكاء ونباهة .وكانت معارفهم ثماراً لأذهانهم وقرائحهم النقية الصّافية . ومن باب المثال نذكر من شعر زهير بن أبي سُلْمى هذين البيتين :

ومهما تكن عند امرىء من خليقــــة وإن خالها تخفى عن النّاس تعلــــم
لسان الفتى نصف ونصف فــؤاده فلم يبق إلا صورة اللحم والدّم

وكانوا بطبيعتهم يمجدون الإباء وعزّة النّفس . ويرفضون الخضوع والهوان ، ولذا قلّما تجد في أقوالهم عبارات التّفخيم وشارات التّعظيم حتّى للملوك والرّؤساء ، وإذا نبغ فيهم شاعر قالوا : شاعر بني فلان أو النّابغة الذّبياني أو الجعدي منسوباً إلى قومه وقبيلته . ثمّ تسرّبت عادة التّعظيم إلى العرب من الأعاجم كما تومىء هذه الرّواية : « دخل رسول الله (ص) السّوق فاشترى سراويل ، ولما وثب البائع إلى يده يقبّلها جذبها النّبي وقال : « هذَا تَفْعَلُهُ الأعَاجِمُ بِمُلُوكِهَا ، وَلَسْتُ بِمَلِكٍ إنّما أنَا رَجُلٌ مِنْكُمْ » . وكان يكره أن يقام له ويقول : « لا تَفْعَلُوا فِعْلَ الأعَاجِمِ » .

لا ألقاب طبقية في الإسلام :

يرفض الإسلام الطّبقيّة وألقابها ، وكان النّبي (ص) يكرهها كما أشرنا ، ويؤكد أنّه بشر مثل النّاس ، وعبد من عباد الله لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرّاً ، ولا يعلم الغيب ، وأنّه ابن امرأة كانت تأكل القديد ، وأنّه يجوع ويعطش ويمرض وينام ، وما هو بوكيل ولا بمسيطر على أحد.

أما حقّ الولاية له فهي في طاعة الله ودينه وشريعته . في الحق وصالح الفرد والجماعة . واشتهر عنه وعن أهل بيته (ع) : « لا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ في مَعْصِيَةِ الخَالِقِ » .

وفي كتاب دراسات في حضارة الإسلام للمستشرق الإنكليزي هاملتون جب أُستاذ اللغة العربية في إكسفور ، ترجمة إحسان عبّاس ورفيقيه ص٦ طبعة سنة ١٩٦٤ : « كانت التّعاليم الأخلاقية التي جاء بها محمّد (ص) ترسيخاً لمعنى الاخوة بين أفراد الجماعة الإسلامية . وأنّهم سواسية من حيث القيمة الشّخصية دون نظر إلى وظائفهم وثرواتهم ومكانتهم .. وقد تمّ ذلك كلّه على أساس الخضوع العلني لإله واحد » . وقال في ص ٢٧٠ : « يرفض الإسلام وجود وسطاء بين الله والإنسان . ويضع كلّ النّاس أمام الله دون أيّة واسطة » .

وما يخدعون إلا أنفسهم :

يوم كان للعالم الإسلامي حول وقوّة وعلم وحضارة ، كان للألقاب حدّ محدود لا يتعدّاه . فالخليفة وأمير المؤمنين لقب لرئيس الدّولة الكبرى . والفقيه أو العالم لقب العارف بدين الله وشريعته ، ولما تفتتت قوّة المسلمين إلى دويلات وإمارات . واضمحلت الحضارة الإسلامية وساد الجهل والتّخلف – كثرت الألقاب الفارغة في الأوساط السّياسية والدّينية ، وتسمّى أمير القطر والنّاحية بالمنتصر والنّاصر والقادر والمقتدر والمظفّر والظّافر حتى قال الشاعر السّاخر :

ألقاب مملكـــة في غير موضعهـــا كالهرّ يحكي انتفاخاً صورة الأسد

وأطلق لقب علاّمة وإمام وآية الله وحجة الإسلام على كلّ ذي جبّة

وعمّة بلا مراعاة النّظير حتّى اختلط الحابل بالنّابل . وتدنّس الطّاهر النّقي ورخص العالم التّقي .. يضاف إلى ذلك إلصاق تهمة الخيانة والعمالة ببعض المتسمّين باسم الدّين الذين يحرّفون أحكامه لمصلحة أعداء الله والإنسانية !. وهذا أعظم ما رزىء به الإسلام والمسلمون .

ومن يصدّق أنّ الحلف الإسلاميّ المعروف بحلف بغداد . كان يعمل جاهداً لاعتراف العرب بإسرائيل . وتعزيز الرّوابط بينها وبين الدّول الإسلامية عن طريق معاهدات سياسية وتجاريّة وثقافية . وكلّنا يعلم أنّ الدّول الأساس في هذا الحلف إسلامية . وهي العراق وإيران وتركيا وباكستان . وتساندها في الخفاء دول أُخرى تنتمي إلى الإسلام والعروبة . والقاسم المشترك بين الجميع السّير في ركاب الإستعمار العالمي الجديد وعجلة حلف الإطلنطي ومع ذلك كان حلف الغدر والتآمر على الإسلام والمسلمين وأتباعه ، يحملون شارات الدّين والذّود عنه ، ويزعمون أنّهم أنصاره وحماته .

وهكذا كلّ مزيّف يستغلّ ستاراً مقدّساً يعمل باسمه للخداع والتّضليل . ومن قبل حمل معاوية وابن العاص قميص عثمان ورفعا المصاحف باسم الله ومحمد (ص) : « يُخَادِعُونَ اللهَ والّذينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إلاّ أنْفُسَهُمْ وَهُمْ لايَشْعُرُونَ ـ٩ البقرة » .

الجامعة الإسلامية أو العربيّة :

منذ سنوات سألني معمّم أيّهما تُفضّل : الجامعة العربية أو الإسلامية ؟. قلت : ليست العبرة بالأسماء ، بل بالمسمّيات . فأيّة حركة أو فئة تهدف إلى القضاء على الظّلم والفساد والفقر والجهل من الدّاخل ، وتقاوم البغي والعدوان من الخارج فهي خير حتّى ولو سمّاها النّاس لا دينية ، والعكس

بالعكس . قال سبحانه : « فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا ما يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ في الأَرْضِ – ١٧ الرّعد » . وفي الحديث الشّريف : « خَيْرُ النّاسِ أَنْفَعُ النّاسِ للنّاسِ . وَشَرّ النّاسِ مَنْ تَخَافُ النّاسُ مِنْ شَرّهِ » .

من أسئلة المحامين

المرء بهمته لا بوظيفته :

انتقلت إلى بيروت قاضياً شرعياً أول سنة ١٩٤٨ ، ونشرت في هذه السّنة وما بعدها العديد من المقالات الحقوقية في مجلّة العرفان ورسالة الإسلام ومجلّة المحامي والنّشرة القضائية الّتي تصدرها وزارة العدل اللبنانية ، ثمّ ألّفت الفصول الشّرعية ، وطبعت ثلاث مرّات ، والأحوال الشّخصية على المذاهب الخمسة . والفقه أيضاً على هذه المذاهب ، وأُصول الإثبات . وموسوعة فقه الإمام جعفر الصادق عرضاً واستدلالاً ، وانتشرت هذه الكتب وتلك المقالات في أوساط المحامين والقضاة المدنيّين .

وكان وما يزال العديد من هؤلاء الأساتذة يسألونني عما أُشكل عليهم من أحكام الشّريعة الغراء ، وبعض المؤلّفين منهم كان يعرض عليّ كتابه قبل نشره راغباً أن أُراجع ما ينقله عن كتب الفقه الإسلامي . وذات يوم زارني محام شهير ونقيب سابق للمحامين وقال : ألفت هذا الكتاب وقارنت بين بعض القوانين الوضعية وبعض مبادىء الشّريعة الإسلامية ، وأود أن أعرف رأيك في هذه المقارنة فرحبت به ، وكان عندي ساعتئذ ضيف من المعمّمين فسمع ورأى .

وكنت آنذاك رئيساً للمحكمة الشّرعية العليا ، وبعد ذهاب المحامي

قال هذا الضّيف على سجيّته أو لشفاء إحنته : يهم هذا الاستاذ بمعرفة رأيك لأنّك رئيس لمحكمة عليا !. فنقل قوله هذا إليّ إحساساً بحنقه وتغايظه . ولكنّي تجاهلت مكتفياً بما شاهدت منه وأحسست .. وقد تولّى غيري رئاسة المحكمة العليا من قبل ومن بعد . وقدّره الناس بهمّته لابوظيفته .

وعلى أيّة حال ، فقد وفّق الله سبحانه وأنعم بالخروج من المحكمة ورياستها ، وله الحمد . وشغلت كلّ أوقاتي بحثاً وتأليفاً ، ورحبت مطابع دار العلم للملايين بمؤلّفاتي بلا قيد أو شرط . ومرّة ثانية ألحمد لله . وزادت الأسئلة والمراجعات أضعافاً عن ذي قبل . وعفواً لهذه الإشارة الباردة ، وأستغفر الله الذي دبّر ويسّر .

ومنذ أيام سألني محامٍ عن ميراث الخنثى ، وآخر قدّم لي استشارة خطية وطلب الجواب بتوقيعي ليقدمه إلى المحكمة المدنيّة ، وثالث سأل مسألة دقيقة ومفيدة تتعلّق برجوع المطلّق إلى مطلّقته أثناء العدّة ، وفيما يلي الأسئلة الثلاثة مع أجوبتها ، وأذكرها بالخصوص لأنّ العهد قريب بها ولم تغب بعدُ عن الحافظة والذّاكرة .

الخنثى :

قال السائل : علمنا أنّ للذّكر مثل حظّ الانثيين بنصّ القرآن الكريم . فما هو نصيب الخنثى ؟.

ونبدأ الجواب بتحديد الخنثى ، وهو الذي له ذكر الرّجل وفرج المرأة ، وينقسم إلى مشكل وغير مشكل ، فإن وجدت فوارق وعلامات ترجّح الذّكورية فذكر ، وما عداه ثقب زائد ، أو ترجّح الانوثية فأنثى ، والآخر كالأصبع الزّائدة ، وعليه فلا إشكال واشتباه حيث يكون الحكم والأثر تبعاً للإمارات والعلامات الموجودة ، وينتفي موضوع الخنثى من

الأساس . وإن فقدت الدّلائل والمميّزات بالكامل . ولا شيء يشير من قريب أو بعيد إلى أنّه ذكر أو أنثى فهو الخنثى المشكل ، وله حكمه الخاص به وحده . ويأتي البيان .

وقال معظم الفقهاء من شيعة وسنّة : يحكم عليه تبعاً لما يخرج منه البول ، فإن بال من حيث يبول الرّجل فرجل . أو من حيث تبول المرأة فامرأة ، وإن خرج البول من الفرجين معاً فالحكم لما سبق البول منه ، وإن تساويا وخرج البول منهما معاً في آن واحد فمشكل . وهناك أقوال أخر في بيان العلامات ، منها إلحاق المني بالبول . ومنها أنّ نبات اللحية بعد الكبر علامة الرّجل . وأنّ الحيض والحبل واستدارة الثّدي علامة المرأة ، ومنها عملية القرعة ومنها عدّ الأضلاع بزعم أنّ الانثى تزيد عن الذّكر بضلع .

والقول الأول هو المشهور والمعتمد وما عداه شاذ أو متروك أو فيه نظر — على الأقل — وقال أحد العلماء ردّاً على عدد الأضلاع وزيادة الضلع في الانثى : « لو صح هذا لما وجد خنثى مشكل » . وهو حقّ وصواب .

وفي سائر الأحوال فإنّ أكثر الفقهاء على أنّ للخنثى المشكل نصف نصيب الذّكر ، ونصف نصيب الانثى ، وذلك بأن نعتبر الخنثى مرّة ذكراً ويؤخذ نصف ميراثه ، ومرّة أنثى ويؤخذ نصف ميراثها ، ثمّ يعطى النّصفين للخنثى — مثلاً — مات زيد ، وورثه ذكر وخنثى مشكل فقط ، وترك ٣٠٠ درهماً ، فنعتبر الخنثى ذكراً ، وله في هذه الحال ١٥٠ درهماً ، ونصفها ٧٥ ، ثمّ نعتبره أنثى ، ولها والحال هذه ١٠٠ درهم ، ونصفها ٥٠ ، ثم نجمع ٥٠ و٧٥ فيكون المجموع ١٢٥ فنعطيه للخنثى المشكل ، والباقي ١٧٥ للذّكر .

الوقف والشّفعة :

قال الشيعة الإمامية : لا شفعة للجار . وعلى ذلك مذاهب السنّة ما عدا الأحناف لأنّ الشّفعة على خلاف الأصل . إذ هي انتزاع ملك المشتري بغير رضاً منه ، ولحديث إذا وقعت الحدود وصرفت الطّرق فلا شفعة . (أنظر كتاب المغني لابن قدامة باب الشّفعة ج٥ ص ٢٨٥ وما بعدها طبعة سنة ١٣٦٧ هـ » .

وفي هذا الكتاب ص ٣١٧ « لاشفعة للوقف » وعلى هذا فقهاء الشّيعة الإماميّة .

أما القانون اللبناني فقد أثبت الشّفعة للجار دون الوقف. وفي هذه السّنة ١٩٧٥ اشترى أحد اللبنانيين قطعة أرض مجاورة لإحدى الكنائس ، فأقام ولي هذه الكنيسة دعوى الشّفعة على المشتري بزعم أن الكنيسة ليست وقفاً بل ملكاً خاصّاً بطائفة معيّنة . وعليه فلا تشملها المادّة القائلة : « لاشفعة للوقف » . وقدّم إليّ وكيل المشتري استشارة تتلخص بأنّ الكنيسة الخاصة بطائفة من الطّوائف هل تكون وقفاً حقيقة وعليه فلا شفعة أو هي ملك لا وقف فتثبت الشّفعة ؟ فأجبت بما يقتضيه الشّرع نصّاً وإجماعاً ، ولكن بأسلوب من سيقرأ الجواب ويشعر معه بالإرتياح ، وأنا أعرف ماذا أكتب ولمن أكتب . وفيما يلي خلاصة ما كتبت بلا ذكر المصادر الفقهية .

من هو مالك الوقف ؟

من أوقف معبداً أو عقاراً يخرج عن ملكه ويدخل في ملك الله تعالى بخاصّة المعبد ، قال سبحانه في قرآنه الكريم : « وَأَنَّ المَسَاجِدَ لله فَلاَ تَدْعُوا مَعَ الله أحَدَاً ــ ١٨ الجن » .والآية ١١٤ من البقرة : « وَمَنْ

أظْلَمُ ممّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ الله أنْ يُذْكَرَ فيهَا اسْمُهُ » .والآية ١٨ من التّوبة : « إنّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ الله مَنْ آمَنَ بِالله وَاليَوْمِ الآخِرِ».

وفي الكتاب المقدّس فقرة ١٦ من الإصحاح ١٦ في رسالة بولس الرّسول لأهل رومية . ما نصّه بالحرف الواحد : « سلّموا بعضكم على بعض بقبلة مقدّسة كنائس المسيح تسلّم عليكم » . وأيضاً في هذه الرّسالة بالذّات لأهل كورنثوس فقرة ١٦ الإصحاح ١١ : « فليس لنا نحن عادة مثل هذه ولا لكنائس الله » .

فإضافة المساجد والكنائس إلى الله دليل قاطع على انتقالها من ملك الواقف إلى ملكه تعالى . ولا أحد يجرأ على القول : إنّ المعابد ليست وقفاً . ولو صح ذلك لم يكن للوقف عين ولا أثر ، وإذن لماذا حصانة المعابد وقداستها وإعفاؤها من الرّسوم والضّرائب .

وإذا كانت المعابد كلّها لله وفي سبيله فلا محالة يكون ما يتبعها وقفاً مثله أرضاً كان أم حانوتاً أم بستاناً حتّى ولو أُطلق عليه لفظ ملك المعبد ، فإذا قيل : هذا حانوت المعبد أو هذه الأرض له فمعنى ذلك أنّها من أوقافه تماماً كما يقال : حائط المسجد وسقف الكنيسة ، لأنّ الفرع يتبع الأصل .

أقوال الفقهاء والمشرّع اللبناني :

اتفق الفقهاء قولاً واحداً أنّ العين الموقوفة مؤبّداً تخرج عن ملك الواقف ، وأنّها إذا خربت وتغيّر عنوانها لا تعود إلى ملكه ، وقال أكثر الفقهاء : إنّ الوقف المؤبّد فك ملك معبداً كان أو غير معبد ، ومعنى « فك ملك » لا مالك إلا الله .

والمشرّع اللبناني حين وضع هذه المادة : « لا شفعة للوقف » قد نظر

إلى أقوال فقهاء الشّريعة الإسلامية من أنّ الوقف ملك لله ، والله لايملك بالشّفعة ، كيف وهو المالك لكلّ شيء ، ولا أحد يملك معه شيئاً ،وعليه فإنّ الشّفعة بطبيعتها تناقض الوقف وتنافره ، لأنّ معنى وجود الشّفعة أنّه لا وقف ، ومعنى وجود الوقف أنّه لا شفعة .

مصافحة المطلّقة الرّجعية :

من طلّق زوجته رَجعيّاًفله كلّ الحق أن يرجع عن الطّلاق ما دامت في العدّة ، ويتحقّق هذا الرّجوع بكلّ ما دلّ عليه من قول أو فعل إجماعاً ونصّاً . وبالأمس القريب سُئلت عن رجل طلّق زوجته رجعيّاً ، ثم رأى أن يرجع ، ولكن بعد أن مضت المدّة . قلت : لا بد من عقد ومهر جديدين . قال السّائل : هل من سبيل آخر ؟ قلت : كلاّ ، إلا إذا كان قد قبّلها أو لمسها في أثناء العدّة حيث ترجع حتماً في هذه الحـــال وإن لم يقصد الرّجوع . قال : صافحها عند التحية أثناء العدّة جرياً على المعتاد .

وهنا تبادر ذهني إلى شيء ، وهو أنّ الرّجل في عصرنا يصافح الأجنبية وينظر إليها سافرة تماماً كأنّها رجل مثله ، والمرأة تصافح الرّجل كأنّه امرأة مثلها . والفقهاء القدامى لم يتعرّضوا لهذه المسألة بالخصوص لأنّها بدعة جديدة لم يتوقعوا أو يتصوّروا حدوثها ، ولكن يمكن اقتباسها من أقوالهم حيث أجمعوا على أنّ الرّجعية بحكم الزّوجة ، وصرّح بعضهم بأنّ المطلّق إذا استباح من الرّجعية أثناء العدّة ما لا يُستباح إلا للزّوج – ترجع تلقائياً حتّى ولو قصد عدم الرّجوع . وعلى هذا القول ترجع المطلّقة إلى عصمة المطلّق بالمصافحة وإن كانت بدافع التحية ، وليس هذا ببعيد عن الإعتبار ، ولكن استباحة الفروج بمثله مشكل ، والأولى بالفقيه الورع أن لا يسرع إلى الفتوى سلباً ولا إيجاباً ، والإحتياط سبيل النّجاة بخاصّة فيما يعود إلى الدّماء والفروج ، فإن اتفق المطلّق والمطلّقة على الرّجوع أجريا عقد الزّواج وإلا طلّقها احتياطاً بعد المصافحة للتحية .

لمجرد الترفيه والتسلية

الكاتب والقارىء :

أيّ كاتب يستطيع أن يُرغم النّاس على قراءة ما يكتب وينشر مهما تعمّق في فنّ الكتابة !.. أبداً لا فرق بين الأكل والقراءة ، فالإنسان لا يأكل ما يكره ، وأيضاً لا يقرأ ما لا يحب . وقد يُظن أنّ حشد المعلومات والأفكار والتّركيز على الفضائل والوعظ والإرشاد والتّشدّق بالكلمات الفخمة يغري القارىء ويشجعه على المضيّ في القراءة !. وهذا عين الجهل والخطأ ، إنّ الطّريق إلى جذب القارىء أن يحسّ ، وهو يقرأ ، أنّه أمام حقائق قد عاشها ، وهموم قد عاناها ، لا أمام أسطر من حبر على ورق وكفى .

وفي أحيان كثيرة يبتغي الإنسان من قراءته التّرفيه والفرار من السآمة والملل ، وقد يُسليه ويُنسيه كلام منظوم أو منثور من حكمة رائعة غالية ، أو حكاية غريبة ممتعة ، أو نادرة باسمة ضاحكة . وما دامت هذه الصّفحات لوقت الفراغ وغرفة البطالة فلا بأس أن نخصّص بعضاً منها لفكاهة مضحكة أو نادرة مسلّية .

التّصحيف والتّحريف :

جاءت الآية الكريمة ١٩٢ من آل عمران هكذا : « رَبَّنَا مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ » فقرأها رجل بصوت مسموع ربّنا من تدخل النّار فقد أخريته « بالراء » فقال له قائل : لقد أخراه ولكن بلفظ أحسن .

وفي الآية ٢٧ من القصص : « إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ » . فقرأها صبيّ على من يعلّمه القرآن : إنّي أُريد أن أنكحك . فقال له المعلم : هذا إذا قرأت على أُمّك لا عليّ .

وقال سبحانه : « لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسؤَالِ نَعْجَتِكَ — ٢٤ ص ». فسأل رجل في مجلس الشّافعي : كيف أقرأ قوله تعالى : بشوال يُعجنك أو بشوال يُعجبك ؟ فقال له بعض من حضر : ليس في القرآن شيء من ذلك . قال الشّافعي : دعوه لي إقرأ بسؤال نعجتك .

وقال سبحانه : « وَمَرْيَمَ ابْنَةَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا — ١٢ التحريم » فقرأ آخر التي أخصت فرجها .

وقال سبحانه : « فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسى — ٦٧ طه » فقرأها جاهل فأوجس في نفسه جيفة . فقيل له : خيفة لا جيفة . قال : كلاّ ، بل جيفة لأنّ موسى توضّأ قبل أن يغسل ...

وجاء في الحديث أنّ النّبي (ص) كان يغسل حصى الجمار قبل رميها في الحج . فقرأه « متحدّث » كان النّبي يغسل خصيّ الحمار . فقيل له : وما أراد النّبي بذلك ؟ فقال : أراد أن يعلّم أُمته التّواضع [1] .

---

(١) كل هذه التصحيفات ذكرها الإصبهاني في محاضرات الادباء ج١ ص ١٠٧ وما بعدها طبعة سنة١٩٦١ .

اللحية :

التقى رجل يحرّم حلق «اللحية» بشاب حلق لحيته ، فقال له بلطف : لماذا فعلت هذا بلحيتك ، وأنت تعلم أنّ جمال الرّجال في اللحى ؟.

فقال الشّاب بالله عليك أيسرّك أنّ اللحية في أستك ؟.

قال الشيخ : لا والله .

فقال الشّاب ما أنصفتني يا شيخ ! تكره أن تكون اللحية في أستك. وتأمرني أن أطلقها في وجهي [1] .

ومنذ أمد قريب وبعد أن صعد الإنسان على القمر بالتّأكيد ، وضع أحد الشّيوخ كتاباً خاصّاً في تحريم حلق اللحية . ولا أدري هل أراد بكتابه هذا أن يفتح عيون الغرب والشّرق على عقولنا ووعينا وثقافتنا نحن المعمّمين أو أراد أن يحبّب الشّباب بالدّين ويجذبهم بأيسر الطّرق إلى الإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر بعد أن طغى تيّار الكفر والإلحاد ؟. إنّ الإيمان بالله هو الأصل الأصيل في الدّين ، وهذه شمسه تميل إلى الغروب في أوساط النّشء والجيل ، فكيف تجاهل الشّيخ هذه الحقيقة ، واهتم كلّ الإهتمام بحلق اللحية دون غيره من المنكرات الماحقة الفاشية .

على أنّ للشّيخ عذره ما دامت الأعمال بالنّيات والشّبهة قائمة في هذه المسألة بلا ريب ، وأنا أعرف إخلاص هـذا الشّيخ في دينه وإيمانه ، ولكنّه وهابي عتيق في صندوقه المغلق ، وليس في الإمكان النّقاش معه في أيّ شيء لأنّه لا يشك . إقرأ الحكاية التالية :

---

(١) مفاخر الجواري والغلمان للجاحظ ص ٥٩ طبعة سنة ١٩٥٧ .

مسليات

تحليل الحرام وتحريم الحلال :

في سنة ١٩٢٧ إجتمع علماء الوهابية ، وحرّموا الرّسم واللغات الأجنبية والجغرافيا التي تقول بدوران الأرض وكرويتها مع أنّ الأرض مسطحة وساكنة ، واللغة ذريعة للوقوف على عقائد الكفّار ، والرّسم تصوير وهو محرّم أنكره علماء السّلف . وتصدّى لهم عالم قدير وطلبهم إلى النّقاش فرفضوا قائلين : لقد نهى الشّرع عن الجدال .

وتحريم الحلال بلا شبهة تماماً كتحليل الحرام ، كلّ منهما سبب موجب للكفر والإلحاد ، إنّ التّشريع لله وحده ، وما لأحد منه شيء حتّى الأنبياء والرّسل ، وأوامره تعالى في التّحريم أقل من القليل بالنّسبة إلى ما أباح وأحلّ كيلا يوقع عباده في العسر والحرج . ومن آياته : « قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ — ٣٢ الأعراف». ومنها : « قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلِ اللهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللهِ تَفْتَرُونَ — ٥٩يونس».

كلام ما بعده من كلام :

قال الجاحظ في كتاب الحيوان : كان إبراهيم بن هاني إذا قرأ شعراً كسره وحطّمه ومع هذا كان يدّعي أنّه عالم وشاعر !. فقال له أبو إسحق : لك أن تدّعي العلم ، ولكن كيف تدّعي الشّعر ، وأنت تنشده مكسوراً؟.

فقال : إنّي هكذا طبعت أن أُقيم الشّعر ناظماً ، وأكسره ناشداً .

فقال أبو إسحق : ما بعد هذا الكلام كلام !.

أجل ، هناك طراز من النّاس لا يسوغ معهم الكلام على الإطلاق كما قال أبو إسحق لأنّهم خارجون عن المقاييس ، وبذلك نطقت الآية ٦٨ من الحج : « وَإِنْ جادَلُوكَ فَقُلْ اللهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ » من مكابرة ومعاندة لنور الحقّ واليقين ، وأيّ منطق من حس أو عقل يجدي ويثمر مع إنسان يُثبت ويُبرم ثم ينفي وينقض ما أبرم ثم يجمع بين النّفي والإثبات في آن واحد ، يفعل كل ذلك على الجزم والقطع .

فإذا حاسبه محاسب أو سأله سائل عن الحجة والدّليل أطلق لسانه بحروف وألفاظ لا مدلول لها إلا التّناقض والتّنافر تماماً كدليل إبراهيم بن هاني وقوله : إنّه ينظم الشّعر موزوناً بطبعه . وينشده مكسوراً أيضاً بطبعه ، أو قول من قال – ولو بلسان الفعل والحال – إنّه يجهل القراءة ولكنّه يحسن جيّداً فن الكتابة ، وإنّه علامة متبحر بحقائق الامور والأحكام ولكن دون أن يدركها وتمرّ بذهنه وتصوّره .

وهذا الطّراز من النّاس الخارجين عن كلّ قاعدة وقياس – موجودون في كلّ زمان ومكان ، ولا نحتاج في إثباتهم ووجودهم في الجنس البشري إلى أكثر من الإشارة إليهم . وها نحن الآن نعاني منهم الأمرّين . وإلى الله المشتكى .

لا حاجة إلا حاجة المسلمين :

أصاب البادية جدب ومحل ثلاث سنوات متوالية في عهد هشام بن عبد الملك ، فقدم عليه جماعة منهم طلباً للرّفد والعون ، ولما اجتمعوا به هابوا الكلام معه إلا شاباً منهم ، له من العمر ١٦ سنة ، قال له : يا أمير سنة أذابت اللحم ، وسنة أذابت العظم ، وسنة لم تترك شيئاً ، وعندك فضل من مال ، فإن كان لله فرّقه على عباده المعوزين ، وإن كان لهم فعلامَ تحبسه

عنهم ؟ وإن كان للك تصدّق به عليهم فإنّ الله يجزي المتصدّقين .

قال هشام : ما ترك الغلام لي واحدة ، وأمر لهم بمئة ألف دينار .
وقال للصّبي : هل لك من حاجة ؟ فقال : أما من دون حاجة المسلمين فلا.
قال الرّاوي : فخرج الغلام من عند هشام ، وهو سيّد قومه وأجلّهم وأعظمهم .

أصبح أصغر القوم سنّاً سيّدهم وأعظمهم لا لجرأته وفصاحته . ولا لذكائه وعبقريته ، بل لأنّه أبى إلا أن يقيس نفسه بالنّاس ، كلّ النّاس في الحقوق والواجبات .وهذا هو النّص الإلهي والإنتخاب الطّبيعي للحاكم والرئيس . لا أتون الإنتخاب وتطاحن الأحزاب الّذي يسمّى بالحريّة والدّيمقراطيّة !. وما أوجب الشّيعة الإمامية العصمة في الإمام والعدالة في نائبه إلا على هذا الأساس . إنّ خير العالم كلّه يتوقف على أن ينسى أُولو الأمر أنفسهم ويقدّروها بضعفة النّاس ، كما قال وفعل علي أمير المؤمنين عليه السلام .

حول وحدة الوجود

الغرض الأوّل من هذا الفصل هو الحديث حول وحدة الوجود ، ونمهّد له بالإشارة إلى معنى واجب الوجود وتوحيده . جلّت عظمته ، نمهّد بذلك لمجرّد الإحتراز من الإشتباه والخلط بين توحيد واجب الوجود ووحدة الوجود .

توحيد واجب الوجود :

ومعنى واجب الوجود أنّه موجود بذاته لا بِعلّة خارجة عنه ، ولو احتاج إلى علّة توجده لم يكن للوجود عين ولا أثر ، أما توحيد الواجب بالذّات فيتمثّل بكلمة التّوحيد « لا إله إلا الله » وسورة الإخلاص « قل هو الله أحد الخ » . ومن صفاته أنّه قديم وخالق ، ومعنى قديم : أنّه الأول بلا أول كان قبله ، والآخر بلا آخر يكون بعده ، ولو كان له أوّل وآخر لم يكن واجب الوجود ، وهو خلاف الفرض ، ومعنى خالق كلّ شيء : أنّه يستحيل أ يكون مخلوقاً لأنّه قديم كما أشرنا ، ومبدأ الخلق ومصدره .

وبكلام آخر لا بدّ للكائن الحادث من نقطة انطلاق تسمّى بالمبدإ أو بالمصدر الأول ، وليس لهذا المصدر من مصدر تماماً كالأب الأول ليس

له أب ، والام الاولى ليست لها أم . وبهذا يتبيّن معنا أنّ الموجود بالفعل أكثر من واحد ، وأنّ منه خالق ومخلوق وقديم وحادث ، ومعنى هذا وجود التّعدّد والإنقسام والكثرة والتّباين في الموجود ظاهراً وواقعاً في مقابل القول بوحدة الوجود ، وشرحها فيما يلي :

وحدة الوجود :

معنى وحدة الوجود : أنّه لا تعدّد وكثرة ولا انقسام وتباين في الكون والطّبيعة . ولا شيء غيرها ولا وراءها وفوقها .. ومع هذا فإنّ الله موجود ولكنّه غير منفصل عن الطّبيعة ولا مباين لها . بل متّحد مع كلّ شيء اتحاد الرّوح مع الجسد والإنسانية مع الإنسان ، فهو يخلق الشّيء ويندمج فيه ويكمن في باطنه ويصبح الخالق والمخلوق شيئاً واحداً بحيث لا يمكن التّمييز بينهما بحال .

وفي العدد الثّاني من المجلد السّادس من مجلّة عالم الفكر الكويتيّة مقال بعنوان « الفكر الهندي من الهندوكية إلى الإسلام » نقل كاتبه مذهباً لبعض الصّوفية يعتقد « أنّ الله خلق العالم من ذاته ، فخرج الكون من جوهر ذاته » **وفي عبارة ثانية « الله هو العلّة المادية والعلّة الفاعلية معاً »** .

ومعنى هذا أنّه لا قديم وحادث ، ولا رحمن وشيطان ، ولا رذيلة وفضيلة ، ولا زمان ومكان .. أبداً لا شيء إلا وحدة مطلقة شاملة لكلّ شيء . وما يبدو من التّعدّد والكثرة والحدود والفوارق فإنّما هو في الظاهر لا في الواقع ، وفي الوهم لا في الحقيقة .هذي هي وحدة الوجود ، ويأتي نقضها وإبطالها .

من أقوال الصّوفية :

وعلى أساس وحدة الوجود وفي ضوئها نستطيع أن نفهم ونفسّر شطحات الصّوفية . ومنها ما نُسب إلى ابن عربي أنّه قال : فرعون أفهم من موسى لحقيقة الالوهيّة حيث قال :

أنا ربّكم الأعلى ، لأنّه يتفق في قوله هذا مع وحدة الوجود !.

وأيضاً قال ابن عربي :

لقد صار قلبي قابلاً كلّ صورة فمرعىً لغزلان ودير لرهبان
وبيت لأوثان وكعبة طائف وألواح توراة ومصحف قرآن

وقال :

عند الخلائق في الإله عقائد وأنا اعتقدت جميع ما اعتقدوه

فهو مؤمن وملحد . ومشرك وموحّد . ويهوديّ ونصرانيّ . ومسلم وبوذيّ في آن واحد !. ولا ضير وحرج عليه ما دام الإيمان عين الإلحاد . والشّرك هو التّوحيد ، والعدم والوجود سواء ، والطّويل على قدر القصير ، والمربّع تفسير للمستدير ، والعقل نفس الجنون الخ .

ومثله قول الحلاّج يخاطب الله سبحانه :

جحودي فيك تقديس وعقلي فيك تهويس

يريد – وأستغفر الله – أنّه ينكر أن يكون الله فوق الطّبيعة ومنفصلاً عنها ، وهذا الجحود والإنكار عين التّنزيه والتّقديس !. أما حكم العقل والعقلاء بأنّ الله ليس كمثله شيء فهو هوس ورعونة !. وقس على هذا الهراء قول البسطامي : « سبحاني سبحاني ما في الجبّة إلا الله » .. إلى غير ذلك من الشّطحات والهفوات .

وقال فقهاؤنا في كتبهم : « المؤمنون بوحدة الوجود إذا التزموا بأحكام الإسلام فالأقوى عدم كفرهم » .

ويلاحظ بأنّ تعدّد الوجود والموجود وتباين الخالق للمخلوق من صميم الإسلام وأُصوله وعقيدته ببديهة العقل وضرورة الدّين ، وعليه فمن أنكر ذلك فما هو بمسلم حتّى ولو صلّى وصام وحج إلى البيت الحرام . وفي كتاب « بحوث في شرح العروة الوثقى » ج٣ ص ٣١٣ ، عبارة يظهر منها أنّ وحدة الوجود لا تتنافى مع الإسلام شريطة أن يؤمن القائل بها بوجودين : أحدهما واجب وقديم ومغاير للطّبيعة ذاتاً وصفاتاً . والآخر ممكن وحادث ، ولكنّ الثاني أشبه بالعدم أو بمنزلته إذا نُسب إلى وجود الأول بحيث يرجع القول بوحدة الوجود إلى أنّ الموجود الكامل واحد من كلّ وجه وليس بمتعدّد .

وعلى أيّة حال فإنّ كلّ من أعطى صفة من صفات الخالق إلى المخلوق فهو مغال ، وكلّ مغالٍ فهو غير مسلم بالنّص والإجماع .

فكيف بمن قال : ما في الجبّة إلا الله ، وأقرّ فرعون في قوله : أنا ربّكم الأعلى ، وفوق ذلك ما جاء في كتاب تلبيس إبليس : أنّ شاة مأمأت ، ولما سمعها أبو حمزة الصّوفي قال : لبّيك يا سيّدي لبّيك : أي أنّ الله تعالى علوّاً كبيراً تجسّد في هذه الشّاة في زعمه . وأيّ فقيه قديم أو حديث يحكم بإسلام هذا وأمثاله ؟.. أللهم إلا أن يقال : لا يحكم بإسلامه لمكان الشّك فيه وعدم العلم السّابق به وعدم التّبعيّة للأبوين ، ولكن يمكن الحكم بطهارته لأنّ موضوع الطّهارة مجرّد الشّك فيها مع عدم العلم السّابق بالنّجاسة . وكلام الفقهاء الذي نقلناه قبل قليل يختص بطهارة أهل وحدة الوجود لا بإسلامهم ، والفرق بين الإثنين في منتهى الوضوح .

ومهما يكن فقد انتهيت من تتبّعي وبحثي لوحدة الوجود ، إلى كفر

من يؤمن بها أو جنونه . ومن دار أمره بين الكفر والجنون مع عدم العلم بحاله السّابقة فهو طاهر غير مسلم .

لا وجود لوحدة الوجود :

ويلاحظ على نظريّة وحدة الوجود ما يلي :

١ — إنّ الشّرط الأساس في كلّ طريق إلى العلم والمعرفة أن يكون عاماً غير مختص بفرد دون فرد أو بفئة دون فئة كالعيان والمشاهدة والإدراك ببديهة العقل ، فكل الناس لهم أعين يبصرون بها ، وعقول يدركون بها ، ويعتقدون بما يرون ويدركون . أما اليقين الّذي يحصل لأحد النّاس من حلم رآه في منامه ، أو من خبر سمعه من فلان أو قرأه في كتاب أو صحيفة — فليس هذا علماً ولا هو بطريق إلى العلم والمعرفة . وينبغي أن يسمّى اعتقاداً بلا مبرّر علميّ لأنّ من أخصّ خصائص العلم أن يسقط كلّ ما هو خاص . ويبقي كلّ ما هو عام بين الجميع . وكذلك الشّأن إذا آمنت واعتقدت فئة من الفئات أو حزب من الأحزاب أو أُمّة من الامم بقول قائدها ورئيسها .

والقائلون بوحدة الوجود يعترفون صراحة بأنّهم لم يكتشفوا هذه الوحدة بالحسّ وعيانه ولا بمنطق العقل وبرهانه لأنّ التّجربة العلمية بزعمهم جهالة عمياء ، وإدراك العقل سراب وهباء ، وإنّما اهتدوا إلى وحدة الوجود والموجود بالحدس والذّوق والإشراق والإتحاد والإتصال أو الفناء والغيبوبة واللدنية .. إلى آخر هذا الغموض والإبهام . وقال قائل منهم : « إنّ حالهم أفضل من حال موسى بن عمران لأنّ موسى سمع من الشّجرة ، وهم سمعوا من حيّ ناطق » . (أُنظر كتاب المعقول واللامعقول لزكي نجيب محمود ص ٤٢٦) .

٢ ــ إنّ العقل هو محكّ الصّدق وتطابق الفكرة للواقع . وهو أصل الاصول لكل حجة ودليل ، والمراقب المحاسب لكلّ قول وإيمان ونظريّة ، ولكلّ كشف ومعرفة . ولو أسقطناه عن الإعتبار لم يبق للإنسان من شيء يُذكر به ولا للعلم والفنّ من عين وأثر . ومن استغشّ العقل وسفّهه فقد حكم على نفسه بالجنون والسّفه .

٣ ــ لقد ثبت بالعلم الّذي لا ريب فيه أنّ ما من شيء في الكون من الذّرّة الصّغيرة إلى المجرّات الكبيرة إلاّ وفيه قوّة دفع وجذب ، وإيجاب وسلب بحيث لا يتسنّى تفسير شيء ووجوده إلا من خلال هذا التّعدّد والتّباين والصّراع « وتوقّف الصّراع في العالم يعني خرابه ودمار الكون». (أنظر مجلّة عالم الفكر الكويتية ج٦ ع٢ ص٤٩ نقلاً عن كتاب هيرقليطس لمؤلفه ويلريت) .

٤ ــ إنّ مسألة تعدّد العناصر في الطّبيعة أو وحدتها لا يبتّ فيها الفقهاء والفلاسفة ولا علماء النّفس والأخلاق والإقتصاد. ولا الصّوفية والمنجمون. وإنّما هي من اختصاص علماء الطّبيعة . والكلمة فيها لهم وحدهم سلباً وإيجاباً . وفي آخر الجزء الثالث من كتاب التّكامل في الإسلام لأحمد أمين العراقي : أنّ علماء الطّبيعة اكتشفوا لحدّ الآن ــ أي سنة ١٩٦١ ــ١٠٢ من العناصر المتباينة . وذكر المؤلف جدولاً بأسماء هذه العناصر .

والخلاصة أنّ وحدة الوجود لا تستند إلى علم وعقل ، ولا إلى حسّ وتجربة ، ولا إلى شيء إلا إلى حالات معيّنة تخصّ أهلها وحدهم ، وقد اعترفوا هم أنفسهم بذلك . وعلى هذا نقول لهم : لكم دينكم ولنا دين .

بين وحدة الوجود والوجودية :

جمعتني الصّدفة في ذات يوم ببعض الموظّفين الشّباب ، وقد تخرّجوا كلّهم أو جلّهم من كليّة الحقوق ، وظهر لي ممّا سمعته من حوارهم أنّهم

يتحدّثون في الوجوديّة . فأصغيت حتّى قال قائل منهم : الوجودية هي وحدة الوجود . فأفهمته الفرق بينهما . وهو يصغي بسمعه . والله أعلم بقلبه وعقله أين كانا ؟ وبماذا كان يشغلهما .

والآن وبعد الإشارة إلى وحدة الوجود أُشير هنا إلى الفرق بينها وبين الوجوديّة عسى أن ينتفع بإشارتي التّالية من أحبّ وأراد .

إنّ وحدة الوجود تشمل الكون كلّه وتجمعه في كيان واحد لا تعدد فيه ولا تجزئة ولا كثرة وانقسام كما قدمنا . أما الوجودية فموضوعها وجود الإنسان فقط ولا تتعدّاه إلى أيّ موجود آخر خاصّاً كان أو عامّاً . بل تكاد الوجوديّة تقتصر على الإنسان الفرد الّذي هو قلعة بنفسه ويمتاز عن غيره من الكائنات بما يترتّب على حرّيته من آثار وأفعال ، لأنّ أبرز مافي الوجودية هو قولها بأنّ الإنسان لا حقيقة له ولا ماهيّة . بل لا ذات ولا وجود إلا من خلال ما يحقّقه بحريّته وإرادته . وبقدر ما يستغل حرّيّته بقدر ما يكون إنساناً . ولا وجود إطلاقاً قبل الإنسان ولا بعده لأيّة قوّة وشريعة أو دين ومبدإ خارج عنه يمكن أن يفرض نفسه عليه .

ومن هنا جذبت الوجوديّة إليها المراهقين وأصحاب الأخلاق النفعيّة والميول الغريزيّة . وأين هذه من وحدة الوجود الّتي لا تحيا وتنمو إلا في بيئة الزّهد وجهاد النّفس والصّبر على الشّدائد ، ومن شطحات بعض المؤمنين بها أنّ قوله تعالى : « إنّ الله يَأْمُرُكُمْ أنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً — ٦٧ البقرة » معناه أنّ الله يأمر كلّ إنسان أن يذبح نفسه لأنّها في الشّهوانية والحيوانيّة تماماً كالبقرة . وعلى هذا الأساس يسوغ لقائل أن يتظرّف ويقول : إنّ الله يأمر الانسان بقطع رأسه إن أصابه الصّداع ، وبالتخلّص من بطنه وأمعائه حين يحسّ بالمغص !.

الصوفيّة وخالق الكون :

حاول رجال الكنيسة من قبل أن يُخضعوا العلم للدّين . وهم أجهل الجاهلين بالعلم والدّين ، وفي هذا العصر يحاول العديد من شبابه ومثقفيه أن يخضعوا الدّين للتجربة في المعمل والتّحليل في المختبر ، وليس هذا بشيء إذا قيس بقول القائلين بوحدة الوجود ، فإنهم يخضعون الله للتزيّي بزيّهم وارتداء ثيابهم وحجبهم !. سبحانه وتعالى عما يقولون علوّاً كبيراً .

الصراع في لبنان

بين الصهيونية والوطنية لا بين الإسلام والمسيحية*

بالأمس كانت بلدتنا آمنة مطمئنة ، يأتيها رزقها رغداً من كلّ مكان ، وكان أهلها يتنقلون من سوق إلى سوق ومن شارع لآخر وادعين هادئين. فما بالهم اليوم ؟ لا يأمن واحدهم على حياته ، وهو في بيته وفراشه ، وكيف شجر الخلاف بين اللبنانيين . واشتدّ بأس بعضهم على بعض حتّى أحالوا نعيم لبنان إلى جحيم . وخيره إلى شرّ . وسلمه إلى حرب ، وأصبح العديد من أسواق بيروت وأحيائها المتألّقة كومة من ركام وحطام ؟.

وقالت إذاعة أجنبيّة : إنّ عدد القتلى بلغ إلى تاريخ ١٦ — ١٠ —٧٥ أكثر من ٥ آلاف قتيل ، وأنّ هناك أكثر من ١٠ آلاف جريح ، أما الخسائر المادية فتقدّر حسب الليرة اللبنانية بـ ٨ مليارات !. هذه إشارة سريعة وخاطفة إلى أحداث لبنان الدّامية التي مضى عليها ٧ أشهر على التّقريب .

ولو أنّ باحثاً عمد إلى معرفة الدّوافع لهذه القارعة أو الفتنة المستعصية ،

* نشرت هذه الكلمة جريدة السفير البيروتية بتاريخ ٢٣ — ١٠ — ١٩٧٥ وكان نشرها بمثابة دعوة إلى الأستاذ سليمان الفرزلي— مسيحي — لنشر الكلمة الآتية بعنوان هل تصهين المسيحيون

وجد أسباباً عديدة ومتنوعة ، فمن النّظام الفاسد وتناقضاته والسّوق الحرّة للسّياسة والتّجارة ، وكلّ ما يتّصل بهما من فنون التّعامل العلني والسّرّي، المشروع وغير المشروع ، إلى الصّراع بين المحرومين والمستأثرين وتعدّد المليشيات وانتشار السّلاح الخفيف والثّقيل ، وترك الحدود والأجواء اللبنانية لجنود إسرائيل بلا حراسة وحماية حتّى فُقد الأمن والأمان من الدّاخل والخارج .. إلى ما يطول سرده وشرحه .

كلّ هذه الأسباب وغيرها تجمّعت وتعاضدت على تدمير لبنان وخرابه . ولعلّ أهمّها جميعاً وأخطرها « أنّ الصّهيونية العالمية تحاول اليوم صهينة المسيحيّة .. ومحو التّقارب المسيحي والشّرق العربي الإسلامي.. فمن وثيقة تبرئة اليهود من دم المسيح إلى وثيقة عدد من الكهنة الفرنسيين تتضح منها الخطّة الصّهيونية » . أُنظر كلمة الأب واكيم مبارك في مجلّة الاسبوع العربي ، العدد ٧٥٠ تاريخ ٢٢ – ١٠ – ١٩٧٣ .

ومذكرة الكهنة الّتي أشار إليها الأب مبارك خرجت من بعض رجال الكنيسة في فرنسا بوحي من الصّهيونية بشهادة مبارك ، وهي تؤكد حقّ إسرائيل في الأرض العربية المستغصبة بصلافة الصهيونية ووقاحتها ، وفي ضوء هذه المذكرة يستطيع أيّ باحث أن يفسّر مذكرة الرهبانيّات والرّابطة المارونية وأهدافها الّتي نشرتّها الجرائد اللبنانية بتاريخ ١٥ – ١٠ – ٧٥ والّتي جاء فيها أنّ مصدر الأحداث في لبنان هو « التّعصب الدّيني والإقتتال الطّائفي » تماماًكما تقول الصّهيونية مع الهجوم الصّارخ على الثّورة الفلسطينية.

أجل ، إنّ علّة الأحداث الدّامية في لبنان هي الطّائفية ، ولكنّها طائفيّة إسرائيلية صهيونيّة من جانب يمثّلها الّذين في قلوبهم مرض ، وهي أيضاً وطنيّة إنسانيّة من جانب آخر يمثّلها الطيّبون المخلصون من مسيحيين ومسلمين .. لقد تعايشت الطّوائف والمذاهب في لبنان أجيالاً وأجيالاً ،

ولم يحدث شيء ممّا يجري الآن على أرض لبنان حيث لا إسرائيل وصهيونية، ولا رابطة مارونية ، ولا رهبانية ومؤامرات أمريكية .

إنّ كلّ واع وعاقل يعلم على الجزم واليقين أنّ ما حدث ويحدث اليوم في لبنان إن هو إلا تنفيذ بأيدي أعداء لبنان لمخطّط صهيوني أمريكي يستهدف تصفية المقاومة الفلسطينيّة وإبادتها من الوجود لا لشيء إلا أنّها ترفض السّلم الخانع الخائن وإلا لتحقق إسرائيل هذا السّلم مع العرب بشرطها وشروطها . ولكنّ القضيّة الفلسطينية ليست حركة عربية وكفى ، بل رمزاً إنسانيّاً نبيلاً يحميها ويدافع عنها كلّ طيّب وشريف عربيّاً كان أو غير عربيّ مسلماً أو يهودياً ، لأنّها تجسّد معاني التّضحية الشّريفة في سبيل أسمى ما يدافع عنه الإنسان ، وأيّ شيء في الكون كلّه أعظم وأفضل من الجهاد والإستشهاد من أجل الوطن والعدل والحرّيّة ؟.

وبعد ، فأيّ مسيحيّ أو غيره بالهويّة والوراثة يعمل لصالح إسرائيل فهو من الصّهيونيّة في الصّميم من حيث يريد أو لا يريد،وما هو من السيّد المسيح (ع) ودينه وإنجيله في شيء . قال سبحانه : « وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إنّ الله لاَ يَهْدي القَوْمَ الظَّالِمِينَ–٥١ المائدة ».

وفي عدد الاسبوع العربي الّذي سبقت إليه الإشارة قال الأب واكيم مبارك ما نصّه بالحرف الواحد : « أما البابا بولس والمقرّبون منه فهم من أقرب الناس إلى المسلمين بنوع الإجمال ، وإلى العرب بنوع خاصّ ، وإلى الفلسطينيين بنوع أخصّ . هذا ما تمكنت من أن أتحقّقه شخصيّاً » . وعليه فعداء الرّابطة المارونيّة والرّهبانيّات للفلسطينيين والقضيّة الفلسطينية هو عداء لدينهم بالذّات ، وتنكر لكنيستهم وإنجيلهم . وهذا يؤكد ما قلناه : « لا صراع في لبنان بين الإسلام والمسيحيّة ، بل بين الصّهيونية والوطنيّة ».

هل تصهين المسيحيون ؟*

لفت نظري في العدد الأخير من جريدة « السّفير » الغرّاء مقال لفضيلة الشّيخ محمد جواد مغنيّة حول طبيعة الصّراع الدّائر في لبنان يتناول ظاهرة مهمّة وملفتة للنّظر لا بدّ من إلقاء المزيد من الضّوء والشّرح عليها لأنّها بالفعل نقطة مركزية في الصّراع ، ولأنّ تأكيدها يفرض على القوى الوطنيّة والعربية في لبنان ، بما في ذلك المقاومة الفلسطينية ، إدارة الصّراع على نحو ملائم .

والواقع أنّ أول ما لفت النّظر إلى هذه الظّاهرة الغريبة على العقل العربي وعلى المسلك الوطني ، هو حجم وطبيعة الجرائم الّتي ارتكبت خلال الأحداث الجارية منذ اغتيال المناضل الوطني معروف سعد إلى اليوم ، والّتي اتسمت بنفس صهيوني واضح دفع المؤسسات « المسيحية » المعروفة كالميليشيات الطّائفية والرّهبانيات والرّابطة المارونية ، بالأعمال ذاتها الّتي ارتكبتها العصابات الصّهيونية في فلسطين (شترن والهاغانا) قبيل قيام دولة إسرائيل ، بحيث إنّ القول بأنّ المسيحيين في لبنان قد « تصهينوا » لم يعد ضرباً من المجاز ، بل أصبح أقرب إلى الحقيقة الواقعة . وهذا بحدّ ذاته

* نشرت في جريدة السفير ٢٤ – ١٠ – ١٩٧٥ .

مؤامرة على المسيحيين العرب بوجه خاص وعلى المسيحيين في الشرق بوجه عام ، لأنّه سيعرّضهم في المدى البعيد إلى نفس المصير المنتظر لكافة القوى العنصريّة في العالم .

وما كان نشوء هذه الظاهرة ليتحقّق في الأصل ، لولا الوجود العملي لفكرة « الوطن القومي المسيحي » الشّقيق والحليف للوطن القومي اليهودي الذي أقامته الصّهيونيّة بالفعل بالتّواطؤ مع الإستعمار العالمي . ومن البديهي أنّ تحقيق هذه الفكرة كما ثبت في فلسطين وكما هو الحال في لبنان الآن، لا يتم إلا بقدر كبير من أعمال التقتيل الجماعي ومن الجرائم البشعة الكفيلة بأحداث الشّرخ النّفسي المطلوب .

إنّ إعلان الرّابطة المارونية في وقت سابق بأنّ « المسيحية اللبنانية » تمثل جميع المسيحيين في الشّرق هو في واقع الأمر إعلان عن قيام الوطن القومي المسيحي . ولكنّ ذلك وحده ليس كافياً لإلباس المشروع لبوس الشّرعية . فإذا كانت المؤسسات المارونية المشار إليها بحكم تمركزها في لبنان وبحكم وضعها القيادي فيه قد لعبت دور الطليعة في هذا المشروع ، فإنّ إضفاء الشّرعية عليه يقتضي أن تجرّ إليه الطّائفة المسيحية الأكثر رسوخاً وانتشاراً والتصاقاً بالعروبة ، وهي الطّائفة الارثوذكسية صاحبة الشّرعية الشّرقية .

ولا بدّ هنا من الإعتراف أنّ بروز الملامح الواقعيّة لهذا المشروع وما رافقه من نشوء للظّاهرة التّي نحن بصددها ، وهي ظاهرة « تصهين المسيحيين » ، قد صادف في هذا المسعى بعض النّجاح لسببين رئيسيّين أولهما الإيقاظ الشّرس للوحش الطّائفي إيقاظاً عنصريّاً هدفه الإستقطاب ، وثانيهما الدّور الذي لعبه بعض المقامات الدّينية الأرثوذكسية في بيروت بالتنسيق مع الثنائي المعروف شارل مالك وغسّان تويني اللذين أعربا صراحة

عن ضرورة انسجام الأرثوذكس مع ما أسمياه « الجسم المسيحي » . وذلك في اجتماع سوق الغرب الشّهير للشخصيّات الأرثوذكسية .

ولا يقلّل من شأن هذا النّجاح النّسبي كون موقف المقام الأرثوذكسي الأول في دمشق من هذا المشروع مغايراً لموقف الأرثوذكس الدّاعين له في لبنان . إذ أنّ هذا التّباين شبيه إلى حدّ ما بالتّباين بين موقف البطريركية المارونية وموقف المؤسّسات المارونية الاخرى مع بعض الفوارق التي يتعلق جزء منها بشخص البطريرك الياس الرّابع نفسه ويتعلّق جزء آخر بالرّفض الذي تبديه الجماهير الأرثوذكسية غير الممثلة في مؤسّسات معيّنة بل تعتبر نفسها ممثّلة بالبطريرك . وقد بلغ هذا التّشوّه في الموقف الأرثوذكسي حداً ظهر معه أنّ الكنيسة الكاثوليكية هي صاحبة الشّرعية الشّرقية وخاصّة بعد أن لمع نجم المطران كبّوجي على الصعيد القومي ونجم المطران غريغوار حداد على الصّعيد الوطني اللبناني .

يتبيّن لنا من كلّ ذلك أنّ مشروع صهينة المسيحية كما طرح من خلال الأحداث اللبنانية بات خطراً جدّيّاً ولم تعد تنفع في مقاومته المسكنات التقليدية . ذلك أنّه إزاء هذه الوحدة المتجسّدة بين الصّهاينة اليهودو «الصهاينة المسيحيين » لا بد من وحدة عميقة الجذور بين القوى الوطنية العربية كافة من أجل إعادة الصّراع إلى هويّته القومية الحقيقية . ذلك أنّ الصّراعات الإقليمية الدّائرة في أفلاك طائفيّة ودينيّة ستتوّج حتماً بالوحدة العربية وفيها الدّواء الشّافي لكلّ الظّواهر العنصريّة .

فن الكتابة

الكتابة :

موضوع الكتابة الفكر والكلمة ، وتعريفها التّعبير الأدبي بصورة طبيعيّة ، أما الغاية منها فتختلف تبعاً لدوافع الكاتب والمادّة المكتوبة من علم وتاريخ وفلسفة واجتماع ودين وهداية وتبشير ودعاية ، أو ترفيه وتسلية .. إلى غير ذلك من الفوائد والمقاصد .

والمراد بالتّعبير الأدبي أو الفنّي الوضوح والبساطة بحيث يفهم القارىء المعنى المقصود في غير عناء مع مراعاة ما تجب مراعاته من قواعد اللغة والدّقة في الأداء ، أمّا المراد من الصّورة الطّبيعية فهو أن ينبع الاسلوب والإنشاء من ذات الكاتب وموهبته لا من التّلفيق والتّنميق ، والتّعسّف والتّكلّف ، كما يفعل الطّفيليّ الدّخيل الّذي قال فيه الشّاعر القديم في الرّجز التّالي الشّهير :

الشّعراء في الزّمـــان أربعـــة   فشاعر يجري ولا يُجرى معه
وشاعر ينشد وسط المعمعـــة   وشاعر من حقّه أن تسمعـــه
وشاعر من حقّه أن تصفعه

شخصيّة الكاتب :

لكلّ فرد ذاته وشخصيّته ، طابعه وطبيعته التي تخصّه وحده ويمتاز بها عن غيره تماماً كبصمة أصابعه ، والشّخصية في موازين علماء النّفس مفهوم روحي لا يدرك بالحسّ . ويتكوّن من استعداد الفرد ومؤهلاته وميوله وانفعالاته ، وقواه النّفسيّة والعقليّة ، وما يتخذه لنفسه من قيم وأهداف .

هذي هي الشّخصيّة على وجه العموم ، أمّا الشّخصية الأدبية ، أو شخصيّة الكاتب فهي موهبة من الله سبحانه نلمس آثارها في تعبيره وأُسلوبه ، وتلازمه في كلّ كلمة وحرف حتّى فيما يحاكي ويقلّد .

وفي كتاب كيف يحيا الإنسان للفيلسوف الصّيني يوتانج : « يقول العالم الكاتب الفرنسي بافون : إنّ أُسلوب الإنسان نفس الإنسان » . ويصلح هذا تفسيراً لقوله تعالى : « قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ » . وفي المثل العربي القديم : « الكلام صفة المتكلم وكل إناء بالّذي فيه ينضح ». ومعنى هذا أنّ من كان فظّاً غليظ القلب فأُسلوبه على شاكلته ، ومن كان لطيفاً رقيقاً فأُسلوبه كذلك ، ويستحيل عادة أو من البعيد جداً أن يكون أُسلوب الإنسان واضحاً وبسيطاً إذا كانت شخصيّته غامضة ومعقّدة ، والعكس بالعكس . وبهذا نجد التّفسير الصّحيح للفرق بين كاتب يعبّر عن أدقّ الأفكار وأكثرها غموضاً ، بيسر ووضوح ، وبين كاتب آخر يغلّف أبسط الأفكار وأكثرها وضوحاً ، بالطّلاسم والغيوم .

وأيضاً في كتاب كيف يحيا الإنسان : « ليس ثمّة كتاب مدرسي لتنمية الاسلوب ، ولا قوانين لرقّة الأحاسيس » . ونشر الدّكتور زكي نجيب محمود كلمة في الأهرام ١٨ / ٤ — ١٩٧٥ بعنوان الأدب ليس علماً جاء

فيها : من الوهم القول بأنّ دارس الآداب أديب.. فهذا طبيب يكتب القصّة. وذاك مهندس يقول الشّعر » .

ونعطف على ذلك : وآخر يحمل شهادة عالية من كليّة الآداب . وما هو من الأدب في شيء . وقديماً كان رجال الدّين والفقه والعلم والفلسفة أو الكثير منهم . شعراء وأُدباء وفنّانين . لهم شأنهم وآثارهم في الحياة الفنية والوجدانية . وإن دلّ هذا على شيء فإنّه يدلّ على أنّ الإبداع الأدبي موهبة من الله سبحانه يهبها من يشاء من عباده بغضّ النّظر عن العلم والتّعليم .

نموّ الموهبة :

وتنمو موهبة الكاتب بالممارسة الدّائبة والجهد المتواصل كتابة وقراءة على أن يعرف الموهوب أيّ شيء يجب أن يقرأ ؟ وفي أيّ شيء ينبغي أن يكتب ؟ فإنّ كثيراً من النّاس يقرءون ، ولكن لا يحسنون الإختيار ، وأيضاً يؤلّفون وينشرون ، ولا يجدون قارئاً على شيء من الوعي . إنّ الكاتب لا يجذب إليه القارىء ، ويتحكم بعواطفه إلا إذا وضعه أمام حقائق قد عاشها ، أو قدّم له تجربة إنسانيّة ينتفع بها ، أو أدخل الرّاحة والبهجة على نفسه بأُسلوب أخّاذ .

وكم من معنىً كان يختلج في نفسي — في مطلع حياتي الكتابية — واستعصى عليّ التّعبير عنه بلغة العصر ، على الرّغم من علمي بقواعد النّحو والصّرف ، ولكنّي لم أتوقف ، بل مضيت في كتابة المقالة تلو المقالة ، ومنها في تأليف كتاب بعد كتاب حتّى انتهيت إلى أُسلوبي هذا الّذي « من حقّه أن تسمعه » فيما أظن ، ومصدر هذا الظّن أنّي وجدت سوقاً لما كتبت ونشرت .

ومرة ثانية أُشير مؤكداً لا غنىً عن الاستعداد والموهبة . إنّها الأصل والأساس . وإنّ مجرّد الممارسة لقراءة النّصوص الأدبية لا تجدي شيئاً . فلقد رأينا علماء أفذاذاً في اختصاصهم لا يحسنون كتابة أسطر « من حقّها أن تسمع » لقريب أو صديق ، وأيضاً رأينا شعراء وفنّانين أُميين ، بل من الجائز جدّاً أن يكون الاميّ الذّكيّ فيلسوفاً من الطّراز الأول . فإنّ في أغوار بعض النفوس من الأسرار ، أكثر مما في الطّبيعة .

طه حسين يكتب نائماً :

ولا أعرف أحداً في عصرنا كطه حسين تمتّع بعظمة الموهبة الأدبية . وحاول أن يستغلّها إلى أقصى ما انتهت إليه ، وبلغ ما أراد وزيادة حيث آلت إليه رياسة الأدب العربي دون منازع . فقد حدّثنا عن نفسه — قبل أن ينشر ويذيع — بضمير الغائب في أول كتاب « أديب » وقال من جملة ما قال :

« كان لا يحسّ شيئاً ، ولا يقرأ شيئاً ، ولا يرى شيئاً ، ولا يسمع شيئاً إلا فكر في الصّورة الكلاميّة ، أو بعبارة أدقّ في الصّورة الأدبيّة التي يظهر فيها ما أحسّ .. وكان إذا خلا إلى نفسه أسرع إلى قلمه وقرطاسه وأخذ يكتب ويكتب ويكتب حتّى يبلغ منه الإعياء ، وتضطرب يده على القرطاس ويأخذه الدّوّار ، فإذا القلم قد سقط من يده ، وإذا هو مضطر إلى أن يأوي إلى مضجعه ليستريح ، ولم يكن نومه بأهدأ من يقظته فقد كان يكتب نائماً كما كان يكتب يقظاً ، وما كانت أحلامه في الليل إلا فصولاً ومقالات ، وخطباً ومحاضرات ، ينمّق هذه ويدبّج تلك — ومع هذا — كان يرى أنّ الآماد بينه وبين المطبعة ما زالت بعيدة .. وكان حياؤه يمنعه من إظهار عقله وقلبه كما يمنعه من عرض جسمه عارياً على النّاس » .

قرأت هذا فتصوّرت شيخاً – رحمه الله – كان يكتب ويذيع كلّ ما يمرّ بخياله مفهوماً كان أو غير مفهوم . مقبولاً أو غير مقبول ، لأنّ الكتابة والطّباعة عنده غاية لا وسيلة . وتجاهل قول الإمام أمير المؤمنين (ع) : « لا تَقُلْ ما لا تَعْلَمْ بَلْ لا تَقُلْ كُلّ ما تَعْلَمْ » . ولهذا الشّيخ – ويا للأسف – أمثال ونظائر . وكنت وما زلت أحزن لما يكتب هؤلاء . ومصدر حزني الخوف أن يسخر منهم ومن أقوالهم من يطلق الأحكام على الدّين وأهله دون استثناء . بلا شاهد ورويّة .

القضاء بالفراسة

من شريعة الغاب إلى شريعة الكاهن :

عاش الإنسان القديم بلا شريعة إلا شريعة الغاب ، وكان الحقّ للقوّة ، أما الضّعيف فملك لمن سبق ، ثمّ انتقل ابن آدم من شريعة الغاب إلى شريعة الكاهن وأساطيره . ومن أمثلة هذه الأساطير والخرافات أنّ كلّ واحد من المتخاصمين كان يحضر ديكاً للصّراع ، ويثبت الحقّ لصاحب الدّيك الغالب .. وإنّ عرب سيناء حتّى الآن يستعملون في قضائهم طاسة يصنعونها على النّار إلى أن تصير كالجمر ، فيلعقها المتّهم فإذا حرقت لسانه كانت الشّكوى صحيحة وإلا فلا .. وأغرب من ذلك أنّ بعض اليابانيين إذا تخاصم مع آخر ، وأعوزه الدّليل ينتحر أمام بيت خصمه كي ينزل غضب الله عليه . (أُنظر أوّل رسالة الإثبات لأحمد نشأت المصري) .

الفراسة والقضاء :

يثبت شرعاً الحقّ المتنازع عليه لدى القاضي ، بالاعتراف والبيّنة العادلة بالإتفاق ، وبعلم القاضي فيما نرى لإطلاق أدلّة الحكم بالحقّ الشّامل لعلم القاضي به ، أما اليمين فإنّها تنهي الخصومة وكفى ، وأيضاً يثبت الحقّ بدلالة الظّاهر مع اليمين حتّى يثبت العكس ، ومن ذلك وضع

اليد على الشّيء المتنازع عليه أو مناسبته لمهنة أحد المتخاصمين دون مهنة الآخر كالمنشار أو المقص ّ يتنازعه النّجار والخيّاط . ولا يد سابقة أو لاحقة لأحدهما عليه . فيحكم للأول بآلة النّشر وللثاني بآلة القص ّ أخذاً بظاهر الحال . واتفق الفقهاء أو أكثرهم على أن ّ الزّوج والزّوجة إذا اختلفا في محتويات البيت . فلها ما يختص ّ بالنّساء وله ما يختص ّ بالرّجال إلا أن تقوم البيّنة على أن ّ ما يناسبها له ، وأن ّ ما يناسبه لها .

وتسأل : هل يسوغ للقاضي أن يميّز بين المحق ّ من المبطل . ويحكم للأول على الثّاني بالقرائن الّتي يستنتجها بفراسته وذكائه من موضوع الدّعوى وظروفها مع العلم بأن ّ هذه القرائن لا تقع تحت حصر وليس لها من ضابط لتباينها وتسلسلها .

الجواب :

من استقرأ وتتبّع مصادر الشّريعة الإسلامية وأحكامها . يجد أنّها تحتاط وتهتم كثيراً بأربعة أمور كل ّ الإهتمام : ١ — تركيز أصول الدّين والعقيدة على أساس العلم واليقين ٢ — حقن الدّماء وحمايتها ٣ — حصانة الفروج وصيانتها ٤ — حرمة الأموال وحراستها . فلا يثبت أصل من أصول العقيدة ، ولا يحل ّ دم أو فرج أو مال إلا بدليل محدّد ومعين ؛ ونطاق الأدلّة في غير هذه الامور أوسع بخاصّة الأحكام الفرعية فإنّها تثبت بخبر الواحد الثقة وبصورة أخص ّ الحل ّ والطّهارة حيث يثبتان بالأصل ، وهو أضعف الأدلّة .

وبهذا يتبيّن لنا أن ّ الفراسة وحدّة الذّهن من حيث هي ليست لإثبات الحق ّ لأنّها ظن ّ لا يسوغ الإعتماد عليه ، أجل للقاضي أن يناقش الخصم ويلقي عليه ما يراه من الأسئلة استجلاءً للحق ّ ، وأن يحمله بذكائه وحسن

تصرّفه على الإعتراف به صراحة أو ضمناً . وأن يكتشف من فلتات لسانه شواهد قاطعة بالحقّ . وليس هذا في واقعه قضاءً بالفراسة بل بالقرائن القطعيّة والدّلائل المفيدة للعلم . وقد اشتهر القاضي إياس بن معاوية بالفراسة وصدق الظّن حتّى صار مثلاً في الذّكاء والألمعية . وإيّاه أراد أبو تمام بقوله :

إقدام عمرو في شجاعة عنـــتر   في حلم أحنف في ذكاء إياس

حول إياس :

ولِيَ إياس القضاء في البصرة ، وكان الخليفة آنذاك عمر بن عبد العزيز فطار صيته في الآفاق حتّى جاءه النّاس يطلبون منه أن يعلمهم القضاء ، وكان يقول لهم : القضاء فهم لا علم . وقيل له : إنّك معجب برأيك . قال : لو لم أكن معجباً برأيي ما قضيت به . وأيضاً قيل له : إنّك تسرع في القضاء . فقال : خمسة أكثر أو ستّة ؟ قالوا : ستّة . قال : أسرعتم في الجواب . قالوا : ومن يشك في خمسة أو ستّة ؟ قال : وأنا لا أشك في صاحب الحقّ فلماذا أدفعه عن حقّه ؟ .

ولما طُلب للقضاء أبى وقال : بكير المرّي خير منّي . ولما طُلب بكير قال : إياس خير منّي . فقالوا له : هو الّذي اختارك وقال : إنّك خير منه . فقال بكير : لو لم يكن من فضله إلا تفضيله إيّاي عليه لوجب أن تعلموا أنّه أفضل منّي .

ومن فطنته وذكائه أنّ رجلاً ادعى على شاب بألف ، ولما سأل إياس المدّعى عليه اعترف بلا توقّف ، فارتاب إياس وقال لهما : غداً أقضي بينكما ، فذهبا على أن يعود إليه في اليوم التّالي ، وبعد قليل جاء أحد التجار

وقال لإياس : هل أتاك رجل بشاب يدّعي عليه بمال ؟ ومن صفاتهما كيت وكيت قال إياس : أجل ما الخبر ؟.

فقال التاجر : الشّاب ابني ولا ولد لي سواه . وإنّه لمسرف وكسول. ولمّا يئست منه أمسكت يدي عنه . فتواطأ مع الرّجل على هذه الدّعوى الكاذبة كي تأمر بسجن ولدي وأضطر أنا إلى التّسديد ليخرج من السّجن . ويقتسمان المال . وأتمنّى أن يموت في السّجن . ولكنّ أمّه تقيم الكون على رأسي ولا تقعده .

فأمر إياس الشّرطة بالبحث عن الرّجل والشّاب . ولمّا جاءوا بهما توعدهما إياس فاعترفا بالتّواطؤ .

وأودع رجل رجلاً كيساً فيه دنانير . وختم أعلاه بخاتمه وغاب صاحب المال طويلاً ، ففتق المودع الكيس من أسفله ، وأخذ الدّنانير وجعل مكانها دراهم ، وخاط الفتق كما كان وأعلى الكيس على حاله . وبعد رجوع صاحب المال من غيابه نازع المودَع عند إياس . فقال إياس للمدّعي : منذ كم أودعته ؟ قال : من خمس عشرة سنة . فقال المودَع : صدق .

فأخرج إياس الدّراهم فوجد بعضها قد ضرب منذ عشر سنين . وبعضها الآخر منذ خمس سنين ، فقال للمودَع : أقررت أنّه أودعك من ١٥ سنة ، وهذه الدّراهم جديدة فادفع إليه دنانيره . فردّها كاملة .

وأودع رجل مالاً عند آخر فجحده ، ولمّا ترافعا عند إياس أنكر المدّعى عليه ، فقال للمدّعي : أين دفعت إليه المال ؟ قال : في البريّة ولا شاهد هناك . فقال إياس : ألم تكن هناك شجرة أو صخرة ؟ قال المدعي : هناك شجرة . فقال إياس : إذهب إليها فلعلّك دفنت المال عندها ونسيت، فتتذكر متى رأيت الشّجرة ، فامتثل ومضى . وقال إياس للمدّعى عليه :

يجلس حتّى يرجعك صاحبك . وبعد ساعة من الوقت قال له : أترى صاحبك قد وصل إلى مكان الشّجرة ؟ فقال: لا . قال له إياس: يا عدوّ الله إنّك كاذب وخائن ، إنّ إنكارك هو اعتراف بأنّك تجهل الشّجرة فكيف عرفتها الآن ؟ فقال المدّعى عليه : أقلني أقالك الله . فأمر إياس أن يُحتفظ به حتّى يأتي صاحب المال ، ولما جاء قال له إياس : خذ حقّك منه .

هل الزوجة شريكة الحياة؟

الزّوجة شريكة الزّوج في حياته المادية طعاماً وشراباً وفراشاً . ما في ذلك ريب . ولكنّ هذه المشاركة بمجرّدها لا توجب الإنسجام والإلتحام في الرّوح والإرادة ، ولا تستدعي تبادل الحبّ والثّقة ؛ بل قد تكون سبباً للتّعب والشّغب ؛ قال سبحانه : « إنّ مِنْ أزْوَاجِكُمْ وَأوْلادِكُمْ عَدُوّاً لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ ــ ١٤ التّغابن » .

إنّ علاقة الزّوجة بالزّوج من حيث هي أشبه بعلاقة الجار بالجار والشّريك بشريكه في المتجر والعقار لا تغيّر الطّباع ولا تمزج أرواحاً بأرواح ... أبداً لا سبيل إلى التّآلف والتّعاطف بين الزّوجين وغير الزّوجين إلا على أساس قول الرّسول الأعظم (ص) : « الأرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنّدَةٌ مَا تَعَارَفَ مِنْهَا ائْتَلَفَ ، وَمَا تَنَاكَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ » والمراد بالتعارف هنا : أن تلتقي الأرواح على صعيد واحد طيبةً أو خبثاً ، طهراً أو رجساً ، أما التنافر فهو أن تُشرّق إحداهما ، وتُغرّب الاُخرى كالنّحلة والخنفساء تفرّ الاُولى من القذارة إلى الورد ؛ وتفرّ الثّانية من الورد إلى القذارة .

وقد يُظنّ أنّ الرّجل المتعلّم لا يستطيع العيش مع زوجة جاهلة

وبالعكس ، وأنّ من شروط الهناء والصّفاء بين الزّوجين أن يكونا متشاكلين أو متقاربين وعياً أو جهلاً !. والواقع يُكذّب هذا الظّن ، فكم من عالم طابت له الحياة مع زوجة جاهلة ، وتجرّع ألف غصّة وغصّة مع زوجة مثقّفة ومتعلّمة .. إنّ العبرة بالخُلُق والطّبع لا بالثّقافة والعلم، أجل إنّ العلم يُقرّب بين الآراء ووجهة النّظر ، ولكنّ هذا شيء ، والسّعادة الزوجية شيء آخر .

ومن جملة ما قرأت في هذا الموضوع أنّ أعرابيّاً قال لزوجته الّتي لم تقنع بالميسور : أنا أسير نحو القناعة ، وأنت تسيرين نحو الجشع والطّمع ، ويجب أن يكون كلّ من الزّوجين على مثال الآخر تماماً كزوجين من الأحذية ومصراعي الباب ، وهل رأيت ذئبة اقترنت بأسد ؟.

فصاحت الزّوجة في وجهه وقالت : دعني من ترّهاتك وخزعبلاتك يا من بيته أوهى من بيت العنكبوت أتتحدّث حديث القناعة وأنت تصارع الكلاب على العظام ؟. لا تنظر إليّ باحتقار ، وتتوثّب عليّ كالذّئب الأحمق وإلا أخبرتك بحقيقتك وما في عروقك .

فقال الزّوج : هل أنت امرأة أم أنت مصدر الآلام والأحزان ؟ إنّ الغضب حملك على سبّي وشتمي ، لقد أُصيب رأسك بالدّوّار ، فرأيت الدّنيا تدور ، ولا شيء يدور سواك .. واأسفاه !.. إنّك لا تفهمين لتعرفي روحي ومكنون قلبي ، إنّ الله خلق المسك لأهل الإحساس وليس لفاقد حاسّة الشّم .. فإمّا أن تسكتي ، وإمّا سكتّ أنا ، وتركت منزلي إلى غير رجعة .

ولما رأت الجدّ منه أخذت تبكي ، والبكاء من حيل النّساء ، وجاءته من طريق آخر ، من إحساسه وعاطفته وقالت له : أنا تراب لقدميك ، إنّ كياني لك والحكم حكمك ، وحبّذا لو متّ قبلك ، إنّ خُلُقك

الكريم شفيعي إليك . فلترأف بي يا من طبعه أحلى من العسل .

وعندئذ ذاب الزّوج وندم حتّى كأنّه الظّالم والمعتدي وقال لها : أنت روحي . وأنا المسيء فاغفري وارحميني[1] .

وهكذا ينهار الرّجل ، ويفقد كلّ ما يملك من قوّة ورجولة أمام عاطفة المرأة حتّى ولو كانت رياءً ونفاقاً . ولا بدع فإنّ المرأة شهوة الرّجل . قال سبحانه : « زُيّنَ للنّاسِ حُبّ الشّهَوَاتِ مِنَ النّساءِ — ١٤ آ ل عمران » . والإنسان صريع الشّهوات وأسير الرّغبات . قال جلال الدين الرّوميّ ما معناه إنّ الرّجل يغلب المرأة في الظّاهر كالماء يطفىء النّار . ولكنّ النّار تجعل الماء يغلي حين ينحصر في القدر ، وهكذا الرّجل تأسره المرأة وتقهره إذا أصبح سجين هواه ومناه .

---

(١) لقطات بتصرف في المبنى مع الحرص على المحتوى ، من حوار طويل ومفيد وضعه جلال الدين الرومي على لسان اعرابي وزوجته ، وقد استغرق حوالي ٨ صفحات من كتاب مثنوي ، ترجمة الدكتور محمد كفافي .

حوار بين إبليس ومعاوية

في الجزء الثاني من كتاب مثنوي لجلال الدّين الرّومي ص ٢٦٢ وما بعدها . حوار بين إبليس ومعاوية . نلخّصه بتصرّف يتفق مع الواقع فيما يلي :

في ذات يوم أيقظ إبليس معاوية من نومه لصلاة الصّبح وقال له : إنّ وقتها أوشك على الإنتهاء . فأسرع إلى المسجد ، وعجّل الطّاعة قبل الفوت .

فقال له معاوية : ومتى كنت لعباد الله من النّاصحين ؟ ألست القائل : « لاقْعُدَنّ لَهُمْ صِرَاطَكَ المُسْتَقِيمَ – ١٦ الأعراف » ؟ .

فقال إبليس : طال عمرك أيّها المفضال ، لقد كنتُ من سكّان العرش ، وخُلقت في ظلّ الطّاعة ، وهي وطني الأوّل ، وحبّ الوطن فطرة وغريزة يحنّ إليه كلّ بعيد عنه ، وقد طال غيابي عن طاعة الله ، وتشوّقت إليها ، فكان من ثمار هذا الحنين إيقاظك إلى الصّلاة .

قال معاوية : هذا مكر منك وخداع ، لقد أسلمت قوم نوح للطّوفان ، وقوم لوط للرّجم بالحجارة ، وأغويت فرعون والنّمرود .. إنّك بحر المكر وكلّنا فيه غرقى .

فقال إبليس : مهلاً أيّها الصّديق الحميم. أنا لم أخلق الزّيغ والعدوان ولا الرّجس والآثام ، وإنّما اختارني الخالق محكاً يميّز النّقد السّليم من الزّائف ، وجعلني فيصلاً بين الخبيث والطيّب ، فالأنبياء يعرضون على الخلائق الطّاعات ، وأنا أعرض عليهم الشّهوات ، وكلّ امرىء وما اختار تماماً كما يدخل السّوق ويجد فيه الحلال والحرام ، وإذن فأنا داع ولست بخالق .

قال معاوية : حسبك تمويهاً وتزويغاً يا قاطع الطّريق . ومن الّذي يطاولك بالحجج المزّوقة المنمّقة ؟. إنّك لعنة وفتنة حتّى آدم أخرجته من الجنّة . خبّرني بصدق لماذا أيقظتني ؟ .

قال إبليس : أتزعم أنّي لعنة وفتنة وقاطع طريق وتنسى نفسك ؟. ولو نظرت إليها بتجرّد لاستعذت بالله منها لا من الشّيطان أيّها الغويّ الغبيّ ، إنّك تماماً كالثّعلب تعدو وراء الخراف الدّسمة ، ولكنّك تبصر الامور معكوسة ، فتطرح إثمك على غيرك !.. يا إلهي مالي وللنّاس ؟ يقترفون الذّنوب والآثام رجالاً ونساءً ، ثمّ ينسبونها إليّ ظلماً وافتراءً .

قال معاوية : حتى مَ تكذب وتراوغ ، وتغالط وتخادع ؟.

فقال له إبليس : أأنت تعرف الصّدق من الكذب ؟ كيف وقلبك مفعم بالآثام والأوهام ؟ .

وإن دلّ هذا الحوار أو هذه الاسطورة على شيء فإنّها تكشف وتهدف إلى أنّ معاوية كان أشرّ من الشّرّ وأمكر من المكر ، وأنّ الشّيطان كان يتعوّذ منه تماماً كما تعوّذ الناس من الشّيطان .. وأنّ معاوية فوق ذلك كان يحاول أن يُلقي بغيلته وجريمته على سواه ، وهي ألصق به من نفسه وألزم له من ظلّه تماماً كما فعل إبليس الذي فسق عن أمر ربّه ، ونسب غوايته إلى خالقه و « قَالَ رَبِّ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي — ١٥ الأعراف » .

ونفس الشّيء يقال في الكسول الفاشل ، يدّعي البراءة من التّقصير والإهمال ، ويلقي تبعات فشله وخطئه على الحظّ والطّالع ، أو على الدّهر والقضاء ، أو على الدّولة والمجتمع ، أما العامل النّشيط فإنّه يتوقّع الخطأ من نفسه ، ويعترف إذا أخطأ . ويمضي في العمل والجد بيقظة وإتقان .

وقال الصّوفية ومن لفّ لفهم : على الإنسان أن لا يهتم بالرّزق ولا يسعى له ما دام الله قد تكفّل به ، وضربوا مثلاً لذلك بالطّير تصبح خماصاً . وتمسي بطاناً !. قال جلال الدّين الرّومي في كتاب مثنوي ج١ ص ٢٩٠ : الفاختة تترنم وتشكر الله على الشّجرة في حين أنّ قوت المساء غير مهيّأ لها . وهكذا العندليب وغيره من البعوضة إلى الفيل ، الجميع يعتمدون على الله المعيل !.

وهذا جهل أو تضليل ... إنّ الله سبحانه خلق الإنسان مهيّأ للعمل ومؤهّلاً للنّضال . وزوّده بأدوات الإنتاج وتطوّر الحياة حتّى الصّعود إلى المريخ ، فوهبه العقل والإرادة وقوّة الجسم والعضلات ، وسلّطه على الطّبيعة برّها وبحرها وجوّها وجميع أشيائها ، ينتفع بكنوزها وأسرارها ، ويكيفها تبعاً لحاجته ومشيئته ، وأين الفاختة والعندليب والبعّوضة والفيل من العلم والصّناعة والتّجارة والزّراعة والإبداع والإختراع ؟.. أبداً لا يكلّف الله نفساً إلا ما آتاها .

إنّ معنى التّوكل على الله سبحانه أن يعمل الإنسان ويكل عمله إلى خالقه « وَفَضَّلَ اللهُ المُجَاهِدِينَ عَلَى القَاعِدِينَ أجْراً عَظِيماً ـ ٩٥ النساء » .

وتجدر الإشارة إلى أنّ يداً خفيّة تعمل الآن جاهدة لترويج كتب الصّوفية وآرائهم بقصد التّخدير والتّضليل عن جهاد الباطل وأهله ، وبثّ السّموم في العقول والأرواح ، وعلينا أن نحذر ولا نغفل عن هذا المكر والتّخطيط .

أيّنا المعصوم؟

روى الرّواة عن سيّد الكونين (ص) أنّه قال :

إن تغفـــر اللهم تغفر جمّـــا ، وأيّ عبـــد لك ما ألمّـــا ؟

وسواء أصحت هذه النّسبة والرّواية أم لم تصح فإنّ مغفرة الله تعالى ورحمته تماماً كذاته لا تُحسب بعدّ ولا تتميّد بحدّ . وأيّنا المعصوم عن الخطأ والخطيئة وفوق العتاب والحساب ؟.

عتاب المؤمنين :

كثيراً ما ألتقي بمن سمع بي أو قرأ لي . وأحبّ أو قدّر على بعد . فيقبل عليّ بكلّه ويبدي ما في نفسه . فأردّ التحيّة بما يجب ولا أزيد تكلّفاً وتصنّعاً .. على سجيّتي في كلّ شيء .

وربما كان يتوقع المزيد من كلمات المجاملة والمصانعة الجوفاء الّتي لا معنىً لها ولا أثر يقع تحت الحسّ . فيأسف ويعتب . وله الحق أن يلوم ويحتج . ولكن ماذا أصنع بطبعي ووضعي ؟.

أقوال تذهب مع الريح :

أبداً لا ضير عليك من أقوال الآخرين ما دامت حروفاً تذهب مع

الرّيح ، ولا تنقص شيئاً من دينك وعقيدتك ، ولا من صحتك وحياتك ، ولا من مالك ومحفظتك .. وفي ظنّي أنّ الخوف من كلام النّاس دليل على ضعف الشّخصيّة واستجداء لعطفهم بغية الوصول لمآرب أُخرى ، إنّ النّاس ليسوا بآلهة ولا بأنبياء كي يكون نقدهم واعتراضهم مقياساً للحقّ والعدل ، وإنّما هو — في الغالب — من مظاهر الميل والعاطفة لا من التّأمل والتّعقل ولا من الدّين والإيمان ، وإذن فعلام الأوهام والإهتمام ؟.

وقد يقال : إنّ مودة الناس وثناءهم على المرء يرفع من شأنه وقدره ، ومعنى هذا أنّ لأقوال الآخرين آثاراً وثماراً ينبغي العناية بها والإهتمام .

الجواب :

إنّ مجرّد الجاه والتّعظيم من حيث هو ليس بغاية في ذاته ، وإن اغترّ به طامع ومؤمّل ، وإنّما هو وسيلة للعمل بالحقّ والحكم بالعدل ، ولحياة أخصب وأطيب دنياً وآخرة ، فمن طلب وأحبّ الجاه لهذه الغاية فقد ابتغى مرضاة الله تعالى وإلا فإنّ نشوة الجاه تماماً كنشوة الخمر إثمها أكبر من نفعها .

واحد من ثلاثة :

من أصعب الصّعب عليّ أن أُجالس أو يجالسني شخص لا أنتفع بحديثه ، ولا أفيده بشيء ، ولا آنس به ، ومع الإبتلاء بواحد من هؤلاء الثّلاثة أصبر على مضض إن اضطررت إلى تحمّل الصّعاب وضبط الأعصاب وإلا قلت له : معذرة فإنّي عنك في شغل شاغل ، وقد يقصدني ضيف منتجع وأعرف ذلك مـــن دلالة الحال أو علامة سابقة — وقبل أن يدخل الدّا

أعطيه ثمن الغدء وأجرة المبيت في الفندق وأقول له : صحبتك السّلامة . وحدث ذلك أكثر من مرّة .

وما أنا براض من خلقي هذا لأنّه غير مألوف . والمداراة لردع الجاهل والسّفيه بصيرة وفطنة . أما الرّفق فهو فضيلة . وفي الحديث : ما اصطحب اثنان إلا كان أعظمهما أجراً وأحبهما إلى الله أرفقهما بصاحبه . وفيه أيضاً: إرفق بمن يكون الكفر في غضبه . وهو سبحانه المسؤول أن يعينني على نفسي .

أين الإخوان في الدّين :

وقد أجد ضالّتي وأمنيّتي عند واحد يجمع الخصال الثلاث : أفيده ، وأستفيد منه ، وآنس به . وقد تكون هذه الخلال سبباً للصّداقة والتّعاطف أمداً غير قصير . حتّى إذا ظننت بأنّ المودّة تقوم على أساس الاخوّة في الدّين ، وأيقنت أنّها بلا أمد ونهاية — نفث فيها الشّيطان وتحوّلت إلى شنآن لا لشيء إلا لأنّي صارحت وآثرت الصّدق ، فيصدّ الصّديق العتيق وينأى ، وأنا بدوري أتجاهل وأنسى غير لاهف ولا آسف .

وبعد ، فقد آمنت بعد التجربة الطّويلة المريرة بأنّ قوام الصّداقة الحقّة الإيمان الخالص والنيّة الصّادقة من الطّرفين ، فأين هما ؟ وإن وجدت واحداً فلا تطلب له ثانياً وإلاّ ضلّ سعيك وخاب مطلبك .

علي وقلة الزاد!

القرآن والحق مع عليّ :

أتانا عن نبيّنا الكريم عليه وعلى آله صلوات العليّ العظيم ، حديث عن جبريل عزّ مقاله عن الله جلّ جلاله : « اللهم أدر الحق مع عليّ حيث دار..» وأيضاً أتانا بهذا الإسناد بالذات : « علي مع القرآن ، والقرآن مع عليّ لا يفترقان حتّى يردا عليّ الحوض ، فأسألهما ما خلفت فيهما » [1] .

معنى الحديثين :

وبكلّ بساطة ومن غير تفلسف وفلسفة : إنّ معنى الحديثين واحد ، وخلاصته أنّ عليّاً أحق أن يُتّبع بعد سيّد الكونين (ص) لأنّه يهدي للتي هي أقوم تماماً كالقرآن ، وبهذا وحده نجد التفسير الصّحيح لحديث الثقلين .

إنّ عليّاً مع الحقّ والقرآن في قوله وفعله ، وفي عقله وقلبه ، وفي

(١) تجد الحديث الأول في صحيح الترمذي ج٢ ص٢٩٨ طبعة بولاق سنة ١٢٩٢ هـ وغيره . وتجد الحديث الثاني في الصواعق المحرقة ص ٧٥ مطبعة المنيمنة سنة ١٣١٢ هـ وغيرها. (نقلا عن كتاب الفضائل الخمسة من الصحاح الستة) .

علمه وعاطفته . وفي سمته وصمته . وفي لحمه ودمه . ومن هنا دار الحق والقرآن مع عليّ حيث دار . وأيضاً من هنا كان ولاؤه وبيانه وطاعته وسلطانه هو بيان الحقّ والقرآن وطاعتهما وولاءهما . والنتيجة الحتم لهذه الصّحبة والمعية أو لهذا الإتمام والإكمال أنّ عليّاً في حراسة الله وعنايته . في حصن حصين من غضبه وحسابه .

آه من قلّة الزّاد :

وعليه نتساءل : ما هو المبرّر والسّبب الموجب لوجله وقوله : « آه من قلّة الزّاد . وطول الطّريق . وبعد السّفر ، وعظيم المورد » ؟. أعليّ قليل الزّاد ويحذر ويخاف يوم المعاد ؟ فأين سورة هل أتى وآية التّطهير والنّجوى ؟ وأين يوم بدر وأُحد ويوم زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وزلزل المؤمنون زلزالاً شديداً ؟ وهل نسي صاحب الأذن الواعية ما سمعه من النّبي (ص) مباشرة وأعلنه على الملأ قائلاً : « لمبارزة عليّ مع عمرو بن ود أفضل من عمل أُمّتي إلى يوم القيامة » [1] ؟.

وأيّ زاد أكثر من هذا الزّاد ؟. فإنّه أثقل وأفضل ممّا عمل المسلمون مجتمعين بما فيهم الصّحابة من أوّل الإسلام إلى يوم الدّين ؟ أليس هذا بكاف ليوم الحساب ؟ وإذن لك الويل يا أُمّة محمد !. وليت شعري على أيّ شيء يُحاسب عليّ ؟ على قرص الشعير وطمر الفقير ؟. لقد طلّق الدّنيا ثلاثاً ، وما بنى لبنة على لبنة ، وقصبة على قصبة ، وكنس بيت المال وصلّى فيه كمسجد يشهد له عند الله يوم القيامة !. وبالتّالي هل هذا تواضع أو درس وعظة للآخرين كما قيل أو قد يقال ؟ .

---

(١) تجد هذا الحديث في تفسير الرازي في ذيل سورة القدر ومستدرك الصحيحين ج ٣ ص ٣٢ طبعة حيدر آباد سنة ١٣١٣ هـ .

اللجوء الى الله :

الجواب : ليس هذا تواضع أو درس وعظة لمن رأى نفسه أتقى الأتقياء وخاف على غيره بأدنى من ذنبه كلاّ . ولا هو شك في نفسه أو في الله وعدله .. أبداً لا شيء من هذا وذاك ولا من غيرهما . وإنّما هو الفقر واللجوء إلى أمان الله ولطفه، هو الشّوق واللهفة إلى فضل الله ورحمته، هو التّذلّل والخضوع إلى عزّ الله وسلطانه . هو الوصول إلى الله من أوضح السّبل وأقربها . هو لون من عبادة العارفين المخلصين الّذين يعبدون الله لله لا عن رهبة قاهرة من نقمته ولا عن رغبة جامحة إلى جنته هو شغل شاغل عن الدّنيا وزينتها بذكر الله وشكره ذكراً وشكراً على مقدار الشّاكر وقدرته لا على قدر المشكور وعظمته .

إنّ الآخرة هي دين عليّ ودنياه . وعاطفته ومناه ، فإليها يطمح ، وبها وحدها يطمع . ومن هنا أعرض عن الدّنيا كأنّها لم تكن على العكس تماماً من أبناء الدّنيا أعرضوا عن الآخرة كأنّها لم تكن . فلا هو يقنع ويشبع من الآخرة . ولا هم يقنعون ويشبعون من الدّنيا .

أخذ عليّ وأعطى :

شيء آخر تحسن إليه الإشارة ، ولعلّه الأصل والأساس ، وهو أنّ الله سبحانه رفع علياً إلى الدّرجات العلى الّتي لا يساويه فيها إلا نبيّ مرسل حيث جعل بيانه بيان الله ، وقرن طاعته بطاعة الله ومعصيته بمعصيته . ولا شيء يوازي هذه النّعمة الجلّى . وإذن فلا بدع إذا استصغر عليّ أيّة طاعة يؤدّيها شكراً . ويستقل أيّة عبادة خالصة لوجه الله بالغاً ما بلغت حتّى ولو كانت أرجح من عمل الثّقلين .ومعنى هذا أنّ علياً أخذ أكثر ممّا أعطى ولو من وجهة نظره .

أخذ في الآخرة السّهم الأكبر والأوفر . ومن الدّنيا حقّ السّمع والطّاعة على جميع العباد ، أخذ العزّة لشأنه والإجلال لكلمته مدى الحياة. واصطحب الطّهر البتول . واحتكر ذريّة الرّسول . وأخذ من سيّد الكونين (ص) مباشرة كلّ ما لديه من علم مخزون وسرّ مكنون ، وكان شريكه في كلّ موقف وجهاد أعزّ الإسلام وسلطانه وشريعته .

هذي هي بعض نعم الله على عليّ . وهو أعلم النّاس بها . ولكنّه يشعر بالعجز عن شكرها وعن تقديرها حقّ قدرها . شأنه في ذلك شأن صفوة الصّفوة من العارفين الخاشعين . ومن هنا استصغر جهاده في الله ولله وإن كان عظيماً . فازداد عظمة على عظمة ونوراً على نور .

نائب الإمام :

ومن عقيدتنا نحن الشّيعة أنّ للإمام المعصوم نائباً عنه في بيان الحلال والحرام ، وفي وجوب السّمع له والطّاعة تماماً كالإمام . ونسميه بالحاكم الشّرعي لأنّه يحكم باسم الشّرع والشّريعة ، ونحدّد هويّته بالعالم بأحكام الله المخالف لهواه المطيع لأمر مولاه .

وكان لنا في أيام زمان علماء ينوبون عن المعصوم في سلوكهم حقّاً وصدقاً وظاهراً وباطناً ، وهذه كتب السّير والتّراجم متخمة بمواقفهم ومناقبهم كأعيان الشّيعة ورياض العلماء والكنى والألقاب ومجالس العلماء. كانوا يشعرون بثقل المهمّة والنّيابة عن الإمام وعظيم أعبائها وتبعاتها . فشكروا الله وأطاعوه بقمع الهوى من نفوسهم ، والزيغ من قلوبهم ،والعمى عن عقولهم ، والدّنس عن أفعالهم ، والبعد عن مواقع الشّبهة والإتّهام ،

فلم يؤثروا رحماً ولا ولداً ولم يخافوا في طاعة الله أحداً . ولم يتخذوا من المضلّين عضداً .. « أولَئِكَ هُمُ المُؤمِنُونَ حَقّاً لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ » .

ونعوذ بالله من الشّيطان الرّجيم وممن يحتلب الدّنيا بالدّين ، وصلى الله على محمد وآله الطّاهرين .

الدين والعاطفة

إنّ في داخل الإنسان العديد من الغرائز والعناصر . منها الفكر والعقل. وعنه يصدر العلم والمعرفة من الكلمة النافعة والحكمة الخالدة إلى أعظم المؤلّفات وتشييد المصانع والجامعات ، ومن عود الكبريت إلى سفينة الفضاء وصعود الإنسان إلى القمر ، كلّ ذلك وما إليه مصدره العقل والإدراك .

وأيضاً من العناصر والغرائز . العاطفة والرّغبة كحبّ المال والنّساء والأولاد . وشهوة الحكم والسّلطان .

ومنها (أي من الحياة الباطنية) الدّين والعقيدة . وعنهما تصدر العبادة والتّضحية بالنّفس والمال طاعة لله ورغبة في مرضاته .

وكثيراً ما يقع الصّراع والتّصادم بين العاطفة من جهة . وبين الدّين والعقل من جهة ثانية ، وفي الأعم الأغلب تنتصر العاطفة على الدّين والعقل ويصابان معها بالشّلل ويتعطّلان عن العمل ، ومن هنا قال سبحانه : «وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ ».وقال : « وأَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُون» .

والسّر الأول والأخير أنّ العاطفة تولد مع الإنسان وترافقه حتّى الممات ، وتتحكم به وحدها في دور الطّفولة ، ولا يستجيب لأيّ شيء إلا إذا استهوته العاطفة حتّى التقليد فإنه ضرب من العاطفة أو هو غريزة

عمياء تماماً كالعاطفة. وبدافع منها يفغر فاه عند الولادة طلباً للتّدي والرضاع ، وكلّما نما يستجيب إلى لون جديد من ميوله حتّى يبلغ دور المراهقة فيطلب الجنس .

وهكذا ينتقل من لون إلى لون من ألوان العاطفة حتّى ترسخ في أعماقه ، وبعد ذلك يأتي العقل والإدراك والدّين المكتسب بالتّقليد والمحاكاة أو بالدّرس والبحث يأتي كلّ منهما متأخراً . وقد يجد له مكاناً في نفس الشّاب . وقد لا يجد . وإن وجده يتخذ منه في الغالب خادماً للأهواء والشّهوات وأداة للميول والغايات الشّيطانية تماماً كما فعل معاوية بـــن أبي سفيان وعمرو بن العاص .

وعلى هذا فإذا أردنا أن نجعل الإنسان مسلماً ديّناً ، ومؤمناً حقّاً فيجب أولا أن نتجه بعاطفته نحو الدّين ، وهو طفل صغير ، ونقيم بناءها وأركانها على أساس المبادىء القرآنية والتعاليم الإسلاميّة بحيث يحب الدّين ويهواه تماماً على العكس ممن اتخذ إلهه هواه . إنّ المدارس الدّينية للكبار والمنابر الحسينية والكتب العقائدية بلغة الفلسفة لا تأتي بالأثر المطلوب كما ينبغي إلا إذا سبقتها العاطفة الدّينيّة والتّربية القرآنية في عهد الطّفولة حيث تكون نفس الطّفل كالأرض الخالية ما أُلقي فيها قبلته كما قال الإمام أمير المؤمنين عليه أفضل الصّلاة والسّلام .

وأيضاً قال مشيراً إلى تربيته الإلهية المحمدية في طور طفولته : « وقد علمتم موضعي من رسول الله (ص) بالقربة القريبة والمنزلة الخصّيصة . وضعني في حجره وأنا ولد يضمّني إلى صدره ويكنفني إلى فراشه ، ويمسّني جسده . ويشمني عرفه (أي ريحه) وكان يمضغ الشّيء ثم يُلقمنيه ».

وهدف النّبي من هذه الحركات والأعمال مع عليّ في طفولته هو أن تكون روح النّبوّة الطّاهرة غذاءً لروح الإمامة والوصاية في عليّ وأن

تكون العناصر الزّكية المحمدية التي في جسم محمد هي بنفسها المادة الحيّة القويّة لجسم علي حتّى يكون وجود الإمام امتداداً لوجود الرّسول جسماً وروحاً . فإذا غاب شخص الرّسول كان عليّ هو الشّخصية الوحيدة التي تخلفه وتمثّله وتقوم مقامه .

ونستخلص من ذلك وأمثاله أنّ التربية الدّينية القرآنية في دور الطّفولة هي الأصل والأساس للإيمان الرّاسخ والعلم النّافع . والعمل الصّالح . هي المادّة الحيّة لتكوين المسلم تكويناً قرآنياً ، ما دام على قيد الحياة ، هي الغرس والبذر الّذي يثمر الخلق الكريم والمسلك القويم . هي الغيث الذي يحيي القلوب بربيع التّقوى والهداية . والمصباح الّذي يرشد العقول إلى شاطىء السّلامة والكرامة .

ولعلّ من المفيد أن أُعيد الفكرة بهذا التّساؤل : ماذا أعددنا لهذه التيارات الإلحادية التي تهبّ في هذا العصر من كلّ جانب ؟ وبأيّ شيء نصون شبابنا من سموم الفلسفة المادية ، ونحفظهم من شرّها وغدرها ؟

ونجد الإجابة عن هذا السّؤال في قول الله ، عزّ من قائل : « وَهَـٰذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ — ١٥٥ الأنعام » .

وإذا كان هذا الكتاب المبارك قد ابتدأ أول ما ابتدأ بقوله : « إِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذي خَلَقَ ، خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ، اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ الَّذي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ، عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ» وأيضاً إذا نزل أول ما نزل من الكتاب على قلب محمد (ص) هذه الآية الكريمة— فجدير بنا نحن أهل القرآن أن نغرس في قلب الطفل أولاً وقبل كلّ شيء إسم الّذي خلق ، ونقرئه بادىء ذي بدء كتاب الله ونعوّده على تلاوته ثم ننطلق به رويداً رويداً إلى تدبّره وتفهمه .

وليس من شك أنّ مجرد نطقه بآيات الله ، وتقديسه لكلمات الله ، وتصوّره لكتاب الله ، كلّ ذلك يترك أطيب الأثر في نفس الطّفل من حيث لا يحس ويشعر ، ونظرة واحدة إلى الطّفل ، وهو يقرأ القرآن كافية وافية في الدّلالةعلى هذه الحقيقة إنّه تماماً كوضع الكبير العالم الخاشع لذكر الله.

أبداً لا سبيل ولا عاصم لأبنائنا من الإنحراف والفساد إلا بالرّعاية الدّينية والتّربية القرآنية ، وإذا تجاهلنا هذه التّربية ، وتركنا الطفل للدعايات الزّائفة المضلّلة حتّى ينشأ عليها ويشبّ ، فلن يقبل منّا ويستجيب لدعوة الدّين ، كيف وقد اشتد عوده ونبت لحمه على الضّلال ، ورسخت في أعماقه جذور الفساد ، وأصبح الطّريق مسدوداً أمام كلّ دعوة ودعاية ؟

وقد استطاع آية الله شريعتمداري دام ظله أن يغرس في العديد من نفوس الجيل والناشئة آي الذكر الحكيم ، وأن يهدم كلّ الحواجز الّتي اعترضت سبيله القويم ، وكذلك دأبه في كل مشروع يرى لله فيه رضاً ، وللناس خيراً وصلاحاً : « وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى الله عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ والمُؤْمِنُونَ ـ ١٠٥ التوبة » (١) .

(١) في العشرة الأخيرة من ربيع الأول سنة ١٣٩٦ ه أقامت دار التبليغ في قم مهرجاناً خطابياً استمر ٥ أيام لمناسبة النجاح الذي حققته في تعليم العديد من طلاب مدارس القرآن الكريم، وكنت آنذاك في قم ، فرغبوا إلي أن أشارك الخطباء ، فتلوت هذه الكلمة مع إضافات جاءت عفواً أثناء التلاوة أو الخطابة

الشيوخ وأحاديث رمضان *

لشهر رمضان المبارك خصائص وفضائل من دون الشهور ... فيه نزل القرآن الكريم ، وفيه يوم بدر أول الفوز والنصر للاسلام والمسلمين ،وفيه الفتح الأكبر بدخول النبي (ص) والصحابةمكة المكرمة ، وفيه ليلة القدر خير من ألف شهر . وقال نبي الرحمة (ص) : سمي رمضان لأنه يرمض الذنوب (أي يحلها) ومن أسمائه وألقابه : شهر الله وشهر التوبة وشهر الأمن والأمان وسيد الشهور ... ولهذه الخلال وغيرها يحتفل به المسلمون في كل عام .

ومن مظاهر هذا الاحتفال : تلاوة كتاب الله ليل نهار . وأحاديث يهيئها ويذيعها على الناس الشيوخ والوعاظ ، وأدعية يعظم بها الصائمون جلال الله وكماله ، ويسألونه الهداية والرحمة ، ويستعينون به على مايعترض حياتهم من عقبات .

•

من أدعية رمضان :

ومن هذه المناجاة دعاء يدعو به الشيعة في كل ليلة من ليالي رمضان . ويسمى دعاء الإفتتاح ومنه :

---

* نشرت في جريدة السفير ت ١٩ - ١٩٧٨/٨ .

« اللهم إنّا نرغب إليك في دولة كريمة، تعز بها الاسلام وأهله ، وتذل بها النفاق وأهله ، وتجعلنا فيها من الدعاة إلى طاعتك والقادة إلى سبيلك ... الحمد لله قاصم الجبارين ، مبير الظالمين ، نكال المعتدين ، صريخ المستصرخين يرفع المستضعفين ويضع المستكبرين » .

وتعكس هذه المناجاة الصّراع الذي قام ودام حقباً وأجيالاً بين الشيعة والطغمة الحاكمة الغاشمة ... وإذا استطاع الطغام أن يذهبوا إلى أبعد الحدود في مطاردة الشيعة قتلاً وتشريداً بكل بقعة من الأرض – فقد اشتد شيعة علي – في المقابل – إلى آخر المدى في معارضة الجور والفساد . وازدادوا ولاء للحق وأهله .

التقليد في أحاديث رمضان :

تكلم الشيوخ الأقدمون عن رمضان ومكانته ، وعن الجانب الصحي والنفسي في الصيام حيث كان الهلال يشرق على ربوعهم ، وهي وادعة هادئة ، وآمنة مطمئنة لا صيد وقنص للنساء والأطفال ، ولا تدمير واغتيال للعابرين المسالمين ، ولا « ميليشيات » ونيرانها تلاحق الآمنين في بيوتهم ومضاجعهم وأعمالهم ومجامعهم وحيث « لا جنوب » تحوّل إلى أشلاء بأيدي الطامعين والعملاء من الداخل والخارج ...

هكذا هلّ رمضان على لبنان ، ولا إشارة إلى شيء من هذه المآسي الدامية في أحاديث الذين يظهرون أمام الناس بثوب الغيرة على الدين ! .

لقد كرروا وأعادوا أحاديث رمضان نفس الألفاظ التي ورثوها عن الآباء والأجداد .. ولا ضير في سنّة الأسلاف إن أسهمت في نهضتنا ، واهتدينا بها إلى خير ، قال سبحانه حكاية عن أهل الجاهلية : « وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ – ١٧٠ البقرة » ومعنى هذا أنّ التقليد ضلالة وجهالة إلا أن يهدي للتي هي أقوم.

العقـــل

منهج أهل البيت (ع) :

لأهل البيت (ع) منهج لا يحيدون عنه، وبه يفسرون الدين ، ويقيسون المبادىء والآراء والمعتقدات والفلسفات ، وهو العقل السّليم الذي يستدل به على غيره ، ولا يستدل بغيره عليه ، ولهم فيه كلام كثير ذكره الشيخ الكليني في أول أُصول الكافي . ومنه : « إنّ الله جَعَلَ العَقْلَ دَليلاً عَلى مَعْرِفَتِهِ ... مَنْ كانَ عاقِلاً كانَ لَهُ دِينٌ ... أعْلَمُ النّاسِ بِأمْرِ الله أحْسَنُهُمْ عَقْلاً ... ألْعَقْلُ دَلِيلُ المُؤْمِنِ » . وفي نهج البلاغة : « أغْنَى الغِنَى العَقْلُ » . ومعنى هذا أنّ العقل هو المبدأ الأول لكل حجة ودليل ، وإليه تنتهي طرق العلم والمعرفة بكل شيء وكل حكم سواء أكان مصدره الوحي أم الحس والتجربة حيث لا وزن للسمع والبصر بلا عقل،وأيضاً لا سبيل إلى العلم بمصدر الوحي إلا العقل ودلالته ، أما هو فدلالته عين ذاته لا بسبب خارج عنها . وبأُسلوب آخر نحن نأخذ بحكم الوحي والشّرع بأمرٍ من العقل ، أما حكم العقل فنأخذه ونعمل به ، وإن لم ينص عليه الشّرع والوحي . **وأخيراً** ، فأبعد الناس عن الدّين من يظن أنّ الدين بعيد عن العقل .

يدعون إلى الإسلام بمنهج خرافي :

لا شيء أضر على الدّين ممن يتسم بسمته ويدعو إليه « بمنهج » خرافي، يسيطر على عقله وقوله ... ويتفاقم هذا الضّرر والخطر إذا وجد من يشجع الخرافة . وينشرها في مجتمع متخلّف ، لا يستطيع العديد من القرّاء التفكير فيما ينطوي عليه « الكتاب » من دعوة ضمنية للرجوع إلى عصر ما قبل العلم.

وآخر ما قرأت في هذا الباب مقالاً بعنوان : « العقل في قفص الإتّهام» نشرته مجلة العربي الكويتية العدد ٢٢٥ . وقد جاء فيه : قال مؤلف كتاب نحن والحضارة الغربية : « إنّ الإيمان وطلب الحجة العقلية كشرط للطاعة والإذعان أمران متناقضان . لا يُسوّغ العقل السليم اجتماعهما أبداً . فالذي هو مؤمن لا يمكن أن يكون طالباً للحجة ... أما الذي هو طالب للحجة العقلية فلا يمكن أن يكون مؤمناً » !. ويلاحظ :

١ ــ أنّ هذا القائل يهدم العقل بمنطق العقل حيث قال بصراحة : « العقل السليم لا يُسوّغ اجتماع الإيمان وطلب الحجة العقلية » ومعنى هذا في واقعه أنّ العقل السليم لا يُسوّغ العمل بالعقل السليم ! وأيضاً معناه العقل السّليم ليس بسليم ! .

٢ ــ قوله : « أما الذي هو طالب للحجة العقلية فلا يمكن أن يكون مؤمناً » معناه أن الإيمان بالله عن عقل وعلم وحجة ودليل فاسد وباطل ! علماً بأنّ الله سبحانه طلب الإيمان به عن طريق النظر والعلم : « سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وفي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحَقّ ــ ٥٣ فصلت » إلى عشرات الآيات التي تؤكد على النظر واعتماد الإيمان على الحجة والبرهان ، ومن هنا قال أكثر العلماء بوجوب الإجتهاد في العقائد .

٣ ــ لو تناقض الإسلام مع العقل ما دخل الناس فيه أفواجاً بنفس

راضية تمام الرضاء . ولا امتد سلطانه في شرق الأرض وغربها . ولا كان المسلمون أساتذة العلم الحديث بشهادة المتخصصين من غير المسلمين .

وبعد ، فمن دواعي الأسف والرثاء أن نتحدث في هذا الموضوع . فكيف بالنقد والجدال . والناس من حولنا يخترعون بعقولهم ويُبدعون ويتصلون بالزهرة والمرّيخ .

معنى العقل السّليم :

العاقل عند الناس وفي اصطلاح القرآن الكريم هو الذي يضع الشيء في موضعه ، ويحبس نفسه عما يشين ولا يستجيب لهواها ، إن يلك مخالفاً للعقل وحكمه ، قال سبحانه : « وَمَنْ أضلّ مِمّن اتّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدىً مِنَ الله ــ ٥٠ القصص ... فَاحْكُمْ بَيْنَ النّاسِ بِالْحَقّ وَلاَ تَتّبِعِ الْهَوى ــ ٢٦ ص ... وَلَوِ اتّبَعَ الْحَقّ أهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السّموَاتُ والأرْضُ وَمَنْ فِيهِنّ ــ ٧١ المؤمنون » ومعنى هذا أنّ العاقل هو الذي ينقاد الى حكم العقل . ويؤثره على هواه ... وعليه يكون المراد بالعقل السّليم الإدراك النابع من العقل بالذّات . لا من الجهل والتعصب ولا من الأهواء والأغراض .

وسئل الإمام الصّادق عن العقل ؟ فقال : « ما عُبِدَ بِهِ الرّحْمَنُ ، وَاكْتُسِبَ بِهِ الجِنَانُ . قيل له : فالذي كان في معاوية ؟. فقال : تِلْكَ الشّيْطَنَةُ وَهِيَ شَبِيهَةٌ بِالْعَقْلِ ، وَلَيْسَتْ بِالْعَقْلِ » . أي أنّ العقل لا يقود إلى الحرام كما يفعل الشيطان . وعنه أيضاً في رواية ثانية : « العَاقِلُ مَنْ كانَ ذَلُولاً لِلْحَقّ ، جَمُوحاً عَلى البَاطِلِ . وقال ولده الإمام الكاظم (ع) : « مَنْ أعَانَ هَوَاهُ عَلى هَدْمِ عَقْلِهِ

أفْسَدَ دُنْيَاهُ وَآخِرَتَهُ ... العَاقِلُ لاَ يَكْذِبُ ، وَإِنْ كانَ فِيهِ هَوَاهُ ... الشَّرّ مِنَ العاقِلِ مَأمُونٌ ، وَالْخَيْرُ مِنْهُ مَأمُولٌ ، وَكَفّ الأذَى مِنْ كَمَالِ العَقْلِ ... إنّ الله تَبَارَكَ وَتَعَالى بَشّرَ أهْلَ العَقْلِ وَالْفَهْمِ في كِتَابِهِ حَيْثُ قال : « فَبَشّرْ عِبَادِ الّذينَ يَسْتَمِعُونَ القَوْلَ فَيَتّبِعُونَ أحْسَنَهُ أولَئِكَ الّذينَ هَدَاهُمُ الله وَأولَئِكَ هُمْ أولُوا الألْبَابِ ـ۱۸ الزمر » وهذه الآية من أوضح الآيات التي نزلت في أصحاب العقول السّليمة .

والخلاصة : إنّ الرجل الواقعي لا يجزم باللمحة ، ولا يُقدم بالفكرة الخاطفة العابرة ، ولا ينطلق مع رغبته وإرادته بمجرّد أن تحدث وقبل أن يتدبّر ويتأمل ، بل يتريّث ويملك نفسه ويبحث ، ويفكر ملياً حتّى يهتدي إلى الرّأي العاقل والأصيل ، ويعمل بوحي منه على العكس من الرجل العاطفي الذي يبتّ في الأمور برغبته وهواه قبل أن يستشير عقله وتفكيره. وبتعبير أستاذنا ، رضوان الله عليه ، « يُصدّق قبل أن يتصوّر » . وزيادة في التوضيح نشير فيما يلي إلى ما قيل حول منطق العقل ومنطق العاطفة .

بين منطق العقل ومنطق العاطفة :

يفترق العقل عن العاطفة في أمور :

١ ـ إنّ ميدان العقل الإدراك والشعور ، وميدان العاطفة الإرادة واللاشعور .

٢ ـ إنّ منطق العقل واحد في الذين قطعوا شوطاً من الوعي والمعرفة، ومن هنا أمكن اتفاق العلماء بسهولة على الكثير من المسائل العلمية ، أما منطق العاطفة فإنّه يتعدّد ويتباين تبعاً لاختلاف الأفراد في أمزجتهم وميولهم. ولذا يتعسّر أو يتعذّر الإتفاق على أيّ شيء يمت إلى العاطفة إلا ما ندر .

٣ – إنّ العاقل يتوقع الخطأ من نفسه ، ويتقبّل النقد برحابة صدر . ولا يثور إذا أظهرتَ له وجه الخطأ في رأيه وقوله ، على حين أنّ العاطفي يتعصّب ويتطرّف ، ولا يتحمّل أن يقال له : أخطأت .

قال الإمام أمير المؤمنين (ع) : « قَلْبُ الأحْمَقِ في فِيهِ ، وَلِسَانُ العَاقِلِ في قَلْبِهِ ... وَمَنْ كَثُرَ نِزَاعُهُ بِالْجَهْلِ دَامَ عَمَاهُ عَنِ الحَقّ » . وبهذا نجد تفسير قوله تعالى : « قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأعْمَى وَالبَصِير – ١٦ الرعد » . وقال الإمام الصّادق (ع) : « مَنْ لَمْ يَتَفَقّدِ النّقْصَ مِنْ نَفْسِهِ دَامَ نَقْصُهُ . وَمَنْ دَامَ نَقْصُهُ المَوْتُ خَيْرٌ لَهُ ... المُؤْمِنُ إذَا غَضِبَ لَمْ يُخْرِجْهُ غَضَبُهُ عَنْ حَقّ ، وَإذَا رَضِيَ لَمْ يُدْخِلْهُ رِضَاهُ في بَاطِلٍ » . والمراد بالمؤمن هنا ما يعم ويشمل صاحب العقل العاقل حيث لا إيمان بلا عقل .

العلم

العلم عند أهل البيت (ع) :

الجهل بالشّيء أن لا نتصوّره إطلاقاً وهذا هو الجهل مع العلم به . أو نتصوّره على غير ما هو عليه . من حيث لا نحس ونشعر بالخطأ والبعد عن الواقع . وهذا هو الجهل بالجهل . والعلم – بمعناه الشّامل – على العكس . أي أن نعرف الشّيء كما هو في حقيقته وواقعه ، ولا وزن لأيّ علم عند أهل البيت (ع) إلا أن يجلب نفعاً أو يدفع شرّاً تماماً كما قالوا عن العمل . لأنّ العلم عقل من ألفه إلى يائه . وقال العالم والفيلسوف جابر بن حيان تلميذ الإمام الصّادق (ع) : العقل والعلم والنّور كلمات مترادفة .

وفي نهج البلاغة : « لا خَيْرَ في عِلْم لا يَنْفَعُ » . وفي سفينة البحار عن الإمام الكاظم (ع) : « أولى العِلْم بِكَ ما لا يَصْلُحُ لَكَ العَمَلُ إلاّ بِهِ » . ومعنى هذا أنّ الهدف الأساس من العلم هو إتقان العمل النافع . والعمل بلا علم ضرّه أكثر من نفعه ، قال الإمام الصادق (ع) : « العَامِلُ عَلى غَيْرِ بَصِيرَةٍ كالسّائِرِ عَلى غَيْرِ الطّريقِ . لا تَزِيدُهُ سُرْعَةُ السّيْرِ إلاّ بُعْداً » ويأتي التفصيل .

المستأكل بعلمه :

في أُصول الكافي في باب خاص بهذا العنوان . وجاء فيه قال الإمام الصّادق (ع) : « أَوْحَى اللهُ إلى داوُدَ لاَ تَجْعَلْ بَيْنِي وَبَيْنَكَ عَالِماً مَفْتُوناً بِالدّنْيَا ، فَيَصُدّكَ عَنْ طَرِيقِ مَحَبّتِي ، فَإِنّ أولَئِكَ قُطّاعُ طَرِيقِ عِبَادِي المُرِيدِينَ » والمعنى إيّاك أن تركن إلى من يتخذ من عقله وعلمه خادماً مطيعاً لبلوغ أهوائه ومطامعه . لأنّه يقطع عليك الطريق إلى رحمتي ومرضاتي . وعلى كل من أراد ويريد الحق والعدل من عبادي ... ولا جزاء عند أهل البيت (ع) لقاطع الطريق إلا القتل أو الصّلب أو قطع اليد والرّجل أو النفي . كما جاء في كتاب الله سبحانه وكتاب الوسائل وغيره من كتب الحديث والفقه لشيعة أهل البيت (ع) .

وفي كتاب أشعة من بلاغة الإمام الصادق (ع) : « إنّ في جَهَنّمَ رَحىً تَطْحَنُ العُلَمَاءَ الفَجَرَةَ » قال هذا قبل ظهور الآلة التي جعلت قوى الشرّ أعظم فتكاً وافتراساً لأرواح الأبرياء وأجسادهم ، وأكثر نهباً واغتصاباً لحقوق الناس وأرزاقهم !. ولا أدري أي شيء كان يقول الإمام الصّادق (ع) لو وُجد في هذا العصر ؟. وقرأت — فيما قرأت — مقالاً بعنوان النبي والعلم في مجلة الهلال المصرية عدد أكتوبر تشرين الأول سنة ١٩٧٢ ، جاء فيه : « إنّ أعْظَمَ تَكْرِيمٍ لِلْعِلْمِ أنْ يَكُونَ أوّلَ أمْرٍ أنْزَلَهُ اللهُ سُبْحَانَهُ عَلَى نَبِيّهِ (ص) : « إقْرَأْ بِاسْمِ رَبّكَ ». ونحن في حياتنا نرى كثيراً من القراءة ، منها ما تكون باسم الله ، وهي أن تكون في خدمة الإنسان ، ومنها تكون باسم التسلّط والهوى والإستعلاء الكاذب ، كقراءة الدول الإستعمارية وما عندها من علم وضعته في خدمة عدوانها الإستعماري ، كقراءة أمريكا في أرض فيتنام وقراءة إسرائيل في

فلسطين والأرض العربية السليبة ، كل أولئك علم وقراءة . ولكنّها ليست باسم الله بل باسم الشيطان .

لا حدّ للعلم :

في كتاب الحجة من أُصول الكافي عن الإمام الصّادق (ع) : « العِلْمُ يَحْدُثُ يَوْماً بَعْدَ يَوْم وَسَاعَةً بَعْدَ سَاعَة » . ومعنى هذا أنّ حدّ العلم أنْ لا حدّ له . وبذلك نطق العلم الحديث . وقرأت فيما قرأت مقالاً بعنوان المعرفة الإنسانية لا تزال تحبو ، نشرته مجلّة المعرفة السّورية في العدد ٣٠ . جاء فيه : « إنّ التقدم العظيم الذي أحرزه علماء الطبيعة في أوائل القرن التاسع ملأهم غروراً وخيلاء ، وظنّوا أنّهم قد فرغوا من بناء صرح العلم ... حتى جاء القرن العشرين . فتبيّن أنّهم كانوا في أول الطريق . وأنّ المسير بعيد وبلا نهاية » .

وذلك بأنّ ما من شيء إلا ويمكن أن يكون محلاً للبحث والدرس ظاهراً كان أم خفياً ، ماضياً أم حاضراً أم آتياً حتى الشيء الواحد كل آن هو في شأن . وقد اعترف العلماء بأنّ المعرفة الكاملة بأيّ شيء متعذّرة . وصدق الله العليّ العظيم : « وَفَوْقَ كُلّ ذي عِلْمٍ عَلِيمٌ — ٧٦ يوسف .. وَقُلْ ربّ زِدْنِي عِلْماً — ١١٤ طه ... وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ العِلْمِ إلاّ قَلِيلاً — ٨٥ الاسراء » . وفي مستدرك نهج البلاغة : أنّ الإمام أمير المؤمنين (ع) قال : « العِلْمُ أكْثَرُ مِنْ أنْ يُحْصَى ، فَخُذُوا مِنْ كُلّ شَيْءٍ أحْسَنَهُ » .

العلم والعمل :

قال الدكتور زكي نجيب محمود في كتاب تجديد الفكر العربي : « من

علامات هذا العصر المميّزة أنّه عصر العلم المقترن بالعمل والموصول أحدهما بالآخر . فإذا وجدت علماً مزعوماً لا يجيء بمثابة الخطة الدقيقة لعمل يُؤدّى فقل إنّه ليس من العلم في شيء إلا باسم زائف » . وهذا الجديد المزعوم أعلنه أهل البيت (ع) منذ أكثر من ١٣٠٠ سنة . فقد جاء في نهج البلاغة وأُصول الكافي عن الإمام الصادق (ع) : « مَنْ لَمْ يُصَدِّقْ قَوْلَهُ فِعْلُهُ فَلَيْسَ بِعَالِمٍ ... العِلْمُ مَقْرُونٌ بِالْعَمَلِ ، فَمَنْ عَلِمَ عَمِلَ ، وَمَنْ عَمِلَ عَلِمَ . وَالعِلْمُ يَهْتِفُ بِالْعَمَلِ . فَإِنْ أَجَابَهُ وإلاّ ارْتَحَلَ » ويشير قول الإمام : « مَنْ عَمِلَ عَلِمَ » إلى أنّ العمل يفتح آفاقاً جديدة لمعارف جديدة . وهي أيضاً بدورها تخدم النشاط العملي . وهكذا دواليك إلى ما لا نهاية . ومعنى هذا أنّ العلم لاحدّ له كما أسلفنا . وقال الفيلسوف الشهير الملا صدرا – من شيعة أهل البيت – في شرح أُصول الكافي وهو يعلّق على هذه الرّواية : « العلم والعمل كالرّوح والجسد يتصاحبان ويتكاملان معاً . وإنّ كل مرتبة من العلم تستدعي عملاً بحسبه . وكل عمل يهيّىء لنوع آخر من العلم » . وفي الوسائل عن الإمام علي (ع) : « في التّجَارِبِ عِلْمٌ مُسْتَأْنَفٌ » .

وهكذا جمع أهل البيت (ع) بين العلم النظري والعلم المادي . بين الفكر واليد ، في مركب واحد . وهذي هي التجربة بالذّات الّتي ينادي بها العديد من علماء العصر الرّاهن ، ويزعمون أنّ الفيلسوف الإنكليزي فرانسيس بيكون « هو أول من دعا صراحة الى اتخاذ العلم سبيلاً للإرتقاء بحياة الإنسان العملية » !. وكم من حقائق اكتشفها الأوائل ، واشتهر بها الأواخر حتى الذرة اكتشفها قبل اينشتين العالم العربي الجلدكي صاحب كتاب الشذور . كما في مجلة المعرفة السورية العدد ١٥٠ ص ٢٧ .

وفي كتاب من هدي القرآن للاستاذ أمين الخولي نقلاً عن الكامل لابن

الأثير أنّ عالماً مسلماً « اكتشف محرقاً جديداً أقوى ما عرف . وقدّمه لجيش صلاح الدين . وقد بلغت القلوب الحناجر – خوفاً من حشود الصليبيين – فأحرق ما تفنّن به الأعداء من إقامة أبراج لم يكن لجيش المسلمين عليها من قوّة . وقدّر صلاح الدين هذا العمل . وبذل لصاحبه الأموال والأقطاع . فرفضها وقال : إنما عملت لله . ولا أريد الجزاء إلا منه . ثم اختفى هذا النبيل العظيم دون أن يحمل التاريخ عنه شيئاً حتى اسمه. فهو في الكتب إنسان من دمشق لا غير » .

أعلم الناس :

في أُصول الكافي أنّ الإمام الصّادق (ع) قال : « إنّما يَهْلَكُ النّاسُ لأنّهُمْ لاَ يَسْألُونَ » وفي مستدرك نهج البلاغة أنّ الإمام أمير المؤمنين (ع) قال : « أعْلَمُ النّاسِ مَنْ جَمَعَ عِلْومَ النّاسِ إلى عِلْمِهِ » . وهذه دعوة صريحة إلى المعاهدات الثقافية . وإلى أن يطلب الناس العلم ولو في طرف الدنيا . وإلى الترجمة عن كل اللغات . لأنّ العلم يجعل الإنسان كاملاً . ويرتفع به إلى مستوًى أعلى .

قدسية العمل في الاسلام

هذا الفصل جزء متمم للفصل السابق ـ لأنّ العمل هو المعيار في الفصلين. والفرق أنّه هنا معيار الإيمان وهناك معيار العلم .

الإنسان القديم :

كان الإنسان في الزّمن الغابر يجوع ويضام ـ فيخضع للواقع ويستسلم تسليماً أعمى ظنّاً منه أنّ النكبات الإجتماعية سوء حظ وسوط قدر ؛ ولا سبيل إلى التحرّر والخلاص حتى أرسطو مؤسّس المنطق كان يقول : لا مفر من نظام الرّق ، لأنّه من القوانين الأساسية للحياة البشرية ، وعلى هذا الأساس قسّم الآلة إلى نوعين : آلة لا حياة فيها كالفأس والمعول ؛ وآلة حية كالحارس والخادم ! ومن أقوال أفلاطون : الرقيق الذي يُشترى بالمال لا يستوي والذي اشتراه بحال ! وقال اغسطين : من حاول إلغاء الرق فقد تمرّد على إرادة الله! وهكذا كانت نظرة أهل الجاهلية إلى العمال والعمل بأجر حتّى جاء الإسلام ونظر إلى العمل نظرة تكريم وإكبار .

الإيمان عمل كلّه :

يحدّد الإسلام حاضر الإنسان ومصيره ، دنياه وآخرته ، بعمله وسلوكه

قال سبحانه : « وَأَنْ لَيْسَ لِلانْسَانِ إلاّ ما سَعَى ـ ٣٩ النجم ... هَلْ تُجْزَونَ إلاّ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ـ ٩٠ النحل » وفي الحديث الشريف : « إنّ الله لا يَنْظُرُ إلى صُوَرِكُمْ وَأمْوَالِكُمْ وَلَكِنْ يَنْظُرُ إلى قُلُوبِكُمْ وَأعْمَالِكُمْ ... لا بُدّ مِنْ قَرِينٍ حَيّ يُدْفَنُ مَعَ المَيّتِ وَهُوَ عَمَلُهُ » وفي أصول الكافي عن الإمام الصّادق (ع) : « الإيمَانُ عَمَلٌ كُلّهِ » . وأيضاً الإنسانية عمل كلها ، وما من شك أنّ المراد بالعمل هنا كل ما يعود على الحياة بالخير والصلاح سواء أكان هذا العمل في المدرسة أم في الحقل أم في المصنع والمتجر أم غير ذلك ، وفيما يلي نعرض أمثلة من هذا العمل الذي حث عليه النبي وآله الأطهار (ص) .

البطالة وقلّة العقل :

« اسْعَ عَلى عِيَالِكَ وَإيّاكَ أنْ يَكُونُوا السّعَاةَ عَلَيْكَ » . وفي حديث ثان « اليَدُ العُلْيَا خَيْرٌ مِنَ اليَدِ السّفْلَى » . والمراد بالعليا العاملة وبالسفلى العاطلة . وأيضاً قال الرسول الأعظم (ص) : « إنّ الله يُبْغِضُ العَبْدَ البَطّالَ ... إنّ الله يُحِبّ المُؤمِنَ المُحْتَرِفَ ... مَا أكَلَ أحَدٌ طَعَاماً قَطّ خَيْراً مِنْ عَمَلِ يَدِهِ » . ومن الناس من يقعد عن العمل لاستغنائه عنه . وفي أحاديث أهل البيت (ع) : أنّ البطالة توجب قلّة العقل وضعفه كما جاء في كتاب الوسائل باب التجارة . وليس هذا ببعيد ، فإنّ عقل العامل في شغل شاغل بعمله ، أما عقل البطال فيسبح في بحر الأوهام التي تفصله عن نفسه وواقعه . ومحال أن يعرف الإنسان نفسه على حقيقتها ويعرفه الناس كذلك إلا من خلال كفاحه وعمله بخاصة حين يواجه موقفاً صعباً ، إنّ في أعماق الإنسان أسراراً وطاقات لا تبرز إلى عالم الوجود وتنتشر إلا بالعلم والعمل .

وأيضاً من الأحاديث : « مَنِ اتَّجَرَ وَحَضَرَ الصَّلاةَ أفْضَلُ مِمَّنْ حَضَرَ الصَّلاةَ وَلَمْ يَتَّجِرْ » . وفي حديث ثان : دخل رسول الله المسجد فوجد رجلاً يتعبّد الأوقات كلها . فقال له النبي (ص) : مَنْ يَسْعى عَلَيْكَ؟ قال : أخي . قال (ص) : « أخُوكَ أعْبَدُ مِنْكَ . إذْهَبْ وَاعْمَلْ » . ويومىء هذا الحديث إلى أنّ العبادة عمل سلبي . وأنّ العمل الإيجابي هو الذي يبتعد بصاحبه عن مذلة الفقر والهوان .

بين المؤمن والملحد :

قال رجل للإمام الصّادق (ع) : ادع الله أن يرزقني . قال : « لاأدْعو لَكَ ، اِذْهَبْ وَاعْمَلْ وَاسْتَغْنِ عَنِ النّاسِ . فَإنّ رسُولَ الله (ص) اتّجَرَ وَرَبِحَ ما قَضى بِهِ دَيْنَهُ . وَقَسّمَ في المُحْتَاجِينَ . وَقَدْ حَمَلَ حَجَراً عَلى عُنُقِهِ . وَوَضَعَهُ في حائِطٍ لَهُ » .

لقد تكفّل سبحانه بالرزق لعباده وعياله ، ولكن عن طريق الجهد والعمل . فمن التمسه من هذا الباب بلغ الغاية وإلا فإنّ السماء لا تمطر خبزاً ولبناً مهما صلّينا ودعونا . أجل إنّ المؤمن لا ييأس ، ولا يستسلم للأمر الواقع ، لأنّه لا يعترف بالمادية الجدلية القائلة بأنّ كل شيء خلقته الطبيعة صدفة ، بل يوقن بأنّ خالق الطبيعة يقول للشيء كن فيكون ، وأنّه يجيب المضطر ويكشف السوء إذا دعاه بإخلاص . فيلجأ إليه حين تشتد الأزمات وتضيق الحلقات وتسد جميع الأبواب ، ويسأله النجاة والخلاص ، ويرجو الفرج والإجابة حتى ولو كان تحت أطباق الثرى أو هاوياً من السماء الى الأرض . وهذا هو الفارق الأساس بين المؤمن والملحد الذي يحمل نفساً واهية خالية من الإيمان بقدرة قادر يخرق نظام الطبيعة ، ويفعل المعجزات .

الزارعون أقرب الخلق إلى الله :

قال الإمام الباقر (ع) : « الزّارِعُونَ هُمْ كُنُوزُ الله في أرْضِهِ » والمراد بالكنوز هنا الأمكنة التي يدّخر فيها سبحانه أقوات عباده وعياله . أما الزارعون فهم الذين يبذرون ويحرثون والذين يصنعون الآلات والمواد الزراعية القديمة والحديثة ، ومن يستخرج الماء من جوف الأرض أو يشق الأنهر والجداول للري . ومثلهم تماماً في القرب من الله كل عامل لنجاح الحياة في أيّة جهة من جهاتها . ولا خير في تقدم الصناعة والعلم إذا كان الهدف منه تسخير الآخرين واستغلالهم . ولا في زيادة الإنتاج ما دام هناك جائع واحد أو مشرّد بلا مأوىً أو مريض بلا علاج . وأيضاً لا خير في الحكومات وجيوشها وعظمتها إذا شكى مظلوم من تجاوزات الأقوياء والطغاة .

وبعد ، فإنّ الإسلام يعتبر العمل هو الأساس الواقعي لإنسانيّة الإنسان وعلمه وإيمانه . لأنّ الله سبحانه خلق الإنسان وأودع فيه ما أودع من مواهب وطاقات ليتسلط على الطبيعة ويسخرها في حاجاته وحل مشكلاته ، لا ليفسد في البلاد ويستعلي على العباد .

صيد اللهو

مفتاح العلم السؤال :

سألني طالب علم : هل الصيد لتمضية الوقت حرام ؟ فأجبته من المخزون في زوايا الذاكرة من أقوال الفقهاء ، ثم اتهمت نفسي وذاكرتي ، وراجعت المصادر أبحث وأنقّب في كتاب الجواهر والمكاسب ومفتاح الكرامة والوسائل وغير ذلك فانتهيت إلى ما يلي :

تشريع الصيد :

وما من شك أنّ الصيد من حيث هو حلال محلل نصّاً وإجماعاً قال سبحانه : « وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا ـ ٢ المائدة » واللفظ عام لكل صيد إلا ما خرج بآية محكمة أو رواية قائمة .

اللهو :

لا فجوة إطلاقاً بين الدين ودنيا الحلال ، قال سبحانه : « وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ـ ٧٧ القصص » . وفي الحديث : « اعْمَلْ لِدُنْيَاكَ كَأَنَّكَ تَعِيشُ أَبَداً » وعليه فكل ما يفرّج الكرب ، وينعش الحواس

فهو سائغ عقلاً وشرعاً سواء أكان حديثاً أو مزاحاً مع الأحباب أم لعبة رياضية أم قهقهة صبيانية أم أي شيء إلا أن يكون حراماً أو يؤدّي إلى الحرام . هذا إلى أنّ الله سبحانه خلق بني آدم على غريزة الضحك والمرح واللهو والفرح . وفي رواية الأعمش عن المعصوم (ع) أنّ الملاهي المحرّمة هي التي تصد عن ذكر الله . أي عن الواجبات . وعليه فالصيد للهو وتمضية الوقت ليس بحرام إلا مع تجاوز الحدود تماماً كغيره من المباحات . وقال الشيخ الأنصاري في المكاسب : « إن أُريد باللهو مطلق اللعب فالظاهر أنّ القول بحرمته شاذ مخالف للمشهور والسيرة ... وكيف كان فلم أجد من أفتى بحرمة اللعب عدا الحلي » .

وتسأل : وماذا تصنع بقوله تعالى : « إنّمَا الدّنْيا لَعِبٌ ولَهْوٌ –٣٦ محمد » ؟ .

الجواب : هذه الآية غريبة عما نحن فيه . لأنّ وصف الدنيا باللعب واللهو لا يشعر بالتحريم من قريب أو بعيد . كيف وقد وصف سبحانه الدنيا بالزينة في الآية ٢٠ من الحديد ونفى عنها التحريم في الآية ٣٢ من الأعراف : « قُلْ مَنْ حَرّمَ زِينَةَ الله ... قُلْ إنّمَا حَرّمَ رَبّيَ الفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإثْمَ والبَغْيَ بِغَيْرِ الحَقّ » وعلى أيّة حال فإنّ كلمة اللهو من حيث هي توحي بالبعد عن الجد والعمل النافع .

هل السّير للصيد سفر ؟ .

بحثت ودققت في باب الصيد من كتاب الوسائل ، فما رأيت نصّاً ينهى عن صيد اللهو . أجل وجدت في باب صلاة المسافر من هذا الكتاب نصّاً يقول : « من سافر قصر وأفطر إلا أن يكون سفره إلى صيد أو في معصية

الله » وعطف المعصية على الصيد من غير قيد . يومىء إلى أنّ الصيد بشتى أنواعه غير حرام حتّى ولو كان للهو .

وإن قال قائل : إنّ عطف المعصية هنا على السفر إلى الصيد من باب عطف العام على الخاص — **قلنا في جوابه** : لا يكون العطف من هذا الباب إلا مع العلم بأنّ المعطوف عليه فرد من أفراد المعطوف كقوله تعالى : « فَإِنَّ الله هُوَ مَوْلاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ المُؤْمِنِينَ والمَلائِكَةُ —٤ التحريم » . فنحن نعلم أنّ جبريل (ع) ملك من الملائكة . ولا نعلم أنّ السّفر للصيد معصية . لأنّ الإتمام شيء والتحريم شيء آخر . فالذي يمتهن السفر يجب عليه الإتمام علماً بأنّه غير عاص . وأيضاً يمكن أن يقال بأنّ السير للصيد لا يعد عرفاً من السفر مهما امتدت المسافة ، بل ولا شرعاً إذا قطع الصائد المسافة من غير قصد ، لأنّه يكون ، وهذه الحال ، كمن طلب شاردة يأخذها حيث وجدها .

وباختصار . فإنّ المحرّمات محصوزة ومعلومة بالنص . وليس منها الصيد واللهو واللعب ، ومن المعلوم بالبديهة أنّه لا تحريم وعقوبة بلا نص . وكل آية أو رواية تومىء إلى ذم اللهو واللعب فالمراد منه مجرّد الكراهة والإرشاد خوفاً من الوقوع في الشبهات والمهلكات .

شطحات فقهية

١ ــ الماء المطلق :

يدخل الماء في علم الفقه للتطهير به من الحدث والخبث . وكذلك التراب وغيره في بعض الحالات . والمراد بالماء المطّهر هذا الماء الطبيعي نازلاً من السّماء ، أو نابعاً من الأرض ، أو ذائباً من الثلج فراتاً كان أو أُجاجاً . ويفهمه الطفل الصّغير والشّيخ الكبير على السّواء بمجرد سماعه لكلمة « م ا ء » دون إضافة أو قرينة ، ويصف الفقهاء هذا الماء المطّهر بالمطلق لمجرّد البيان والتوضيح لهويته . وبه فسّروا كلمة الطهور في قوله تعالى : « وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُوراً ــ ٤٨ الفرقان » .

وألّف الشيخ أسد الله التستري كتاباً في الفقه أسماه « مقابس الأنوار ونفائس الأسرار في أحكام النبي المختار وعترته الأطهار » وتحدّث فيه مطوّلاً ومفصّلاً عن مادة « ط ه ور» لغة وشرعاً بما يتّسع لأكثر من ٣٠ صفحة بالقطع المعتاد .

وبذل جهداً مضنياً محقّقاً ومدقّقاً : هل المراد بكلمة طهور المصدر أو اسم المصدر أو الصفة ؟ .واستشهد بأكثر من عشرين كتاباً من العامة والخاصة على حدّ تعبيره . وبعضها لم أسمع به من قبل مثل « ضياء الحلوم

مختصر شمس العلوم » وتعرَّض لصيغة **فعول** : هل استعمالها صفة قياسي أو سماعي ؟ وعلى كل الإفتراضات : هل معنى طهور في اللغة الطاهر المطهر أو الطاهر فقط ؟ وعلى افتراض أنّه مطّهر : هل يُطهّر من الخبث دون الحدث أو منهما معاً ؟.وهل معناه في الشعر تماماً كمعناه في النثر . أو يختلف عنه ؟ وقال فيما قال محقّقاً : إنّ الطهور في الشعر لا يأتي إلا للمدح. وإذن فالمراد به الطاهر المطهر « وربما يستعمل في الطاهر فقط لضرورة الوزن فلا يقاس عليه » .. إلى غير ذلك كثير .

وغرضه من هذا الحفر والتنقيب . والتكثير والتطويل هو المقارنة بين المعنى الشّرعي والمعنى اللغوي والعرفي لكلمة طهور . وأنّ للشارع حقيقة شرعية فيه .. وكان في وسعه أن يشير إلى ذلك بسطر أو سطرين .. هذا . مع العلم بأنّه لا داعي إطلاقاً لهذا البحث من الأساس . لأنّ التطهير بالماء المطلق من الحدث والخبث ضرورة من ضرورات الدّين وبديهياته ، وليس محلاً لاجتهاد أو تقليد تماماً كوجوب الصّلاة والزّكاة . ولكنّ الشيخ أراد التبحر في علوم « النبي المختار وعترته الأطهار » !.

وبعد ، فإنّ العالم حقاً هو الذي يقدّم للناس نظريات تزيد عقولهم نوراً وحياتهم خصباً ، وما عدا ذلك فزخرف وسراب ، وتمويه ويباب .

٢ ـ الماء المضاف :

إذا أُضيف إلى الماء المطلق عنصر آخر كالشاي والقهوة ـ سُلب عنه وصف التطهير به ، وبالأولى إذا اعتُصر من جسم كماء الليمون والجزر. ويرمز الفقهاء إلى هذا النّوع بالماء المضاف .

وكتب فاضل معاصر ثماني صفحات بالقطع المعتاد ، يُحقق فيها

ويدقق : هل هناك عنصر مشترك بين الماء المطلق والمضاف فيكون استعمال كلمة « م اء » في المضاف حقيقة لا مجازاً ، أو لا عين وأثر لهذا العنصر فيكون الإستعمال مجازاً لا حقيقة ؟.

ونسأل : هل هذا الغوص في أعماق الفلسفة اللغوية والتحايلات الكلامية – يُساير الفقه في شيء ؟ وهل هو تطوّر لأُسلوب البحث والدّراسة ؟. إنّ عصرنا عصر فلسفة التعمير والبناء ، والتقدم والتطوّر ، لا عصر فلسفة الكلام وعبقريته ، ومن أخص خصائصه السرعة وطي الزّمان والمكان في لحظات . وأيضاً طي الصفحات في عالم الكتمان إذا لم تمس الحياة من قريب أو بعيد .

وحبّذا لو ساهم صاحبنا في تجديد النجف ، واستقام على الطريق التي استقام عليها الشيخ عبده من قبله في تجديد الأزهر ، وصاحبنا بطاقاته كفوٌ لأكثر من ذلك مع العلم بأنّ ظروف الشيخ عبده كانت أشد وأعسر . لأنّ طهاة القديم بالأمس كانوا أكثر عدّة وعدداً من أنصار الجديد . أما اليوم فكل الناس يهتفون للشيخ عبده ، ويرون أخطر الخطر في الجانب المضاد لأفكاره وأهدافه .

٣ – ماء الغسالة :

وهو المستعمل في تطهير المحل ، والمنفصل عنه . وأطرف ما قرأت في هذا الباب : ما جاء في كتاب الطهارة للشيخ الأنصاري ، وكتاب الميزان للشعراني . قال الشيخ الأنصاري في طهارته نقلاً عن الشهيد الأول : أنّ بعض الفقهاء قال : إذا تنجس المحل ، ثم طُهر بالماء المطلق يطهر لا محالة ، ولكنّ القطرات الباقية على المحل الطاهر يُحكم عليها بالنجاسة حتماً ، وذلك أنّك إذا صببت الماء مرّة أُخرى على المحل الطاهر ينجس هذا الماء

بملاقاته للقطرات المتخلفة على المحل المغسول . فإذا كرّرت الدّفعات المائية مرّات إلى ما لا نهاية ، فكل واحدة نجسة بلا استثناء لنفس السّبب . أما المحل فعلى الطهارة .

ولا أدري : هل هذا التدقيق العميق شطحات خيالية . أم اجتهادات فقهية مع العلم بأنّ أحكام الله ترتكز على إفهام المخاطبين بها . لا على التدقيق عقلاً والتحليل كيماوياً .

وقال الشعراني في ميزانه : الماء المستعمل في الغسل والوضوء طاهر في نفسه غير مطهر لغيره عند أبي حنيفة . والسّر في ذلك أنّ أبا حنيفة كان إذا نظر إلى هذا الماء رأى فيه صوراً واضحة لذنوب الناس وخطاياهم كبائرها وصغائرها .. فقد رأى ذات يوم شاباً يتوضّأ ، فتجلّت في قطرات وضوئه صورة العقوق لوالديه . فقال له أبو حنيفة : تب من عقوق والديك قال الشاب : تبت . ورأى ثانياً فقال له : تب من الزنا . وثالثاً فقال له : تب من الخمر الخ ..

والمعروف من مذهب أبي حنيفة أنّه كان يجيز التوضي بسؤر الحمار ونبيذ التمر مع وجود الماء كما جاء في كتب الأحناف ، ومنها حاشية ابن عابدين ج١ ص ٧٦ طبعة سنة ١٣٢٣ هـ وشرح فتح القدير ج١ ص٨٠ وما بعدها طبعة مصطفى محمد بمصر . فهل كان أبو حنيفة يرى أيضاً صور الذنوب في سؤر الحمار والنبيذ المستعملين في وضوء المذنب ؟ وهل الماء المستعمل في وضوئه أسوأ حالاً من سؤر الحمار والنبيذ ؟.

وبعد ، فإنّ ابن البادية البسيط يعرف تماماً أنّه يعيش الآن في عصر العلم ، وأنّ الأقمار الصناعية تجوب الفضاء لتربط أركان الأرض بالصوت والصورة ، وأيضاً يعرف أنّ كلّ شيء يقاس بما ينفع الناس ، وأنّ أي شيء لا يحل مشكلة من مشكلات الحياة فهو لغو وهراء .

٤ — من سهو القلم :

وقد تكون « الشطحة » أو الغلطة من سهو القلم وغفلته ، ومن ذلك ما جاء في مستمسك العروة نقلاً عن المبسوط لشيخ الطائفة : أنّ على من يريد الغسل من الجنابة أن يزيل أولاً النجاسة عن بدنه ، ثم يغتسل ، فإن خالف واغتسل أولاً فقد طُهر وارتفع حدث الجنابة سواء ذهبت النجاسة مع الغسل ، أم بقيت عينها على البدن بعد الغسل !.

ويلاحظ بأنّه قد يكفي الغسل الواحد لارتفاع الخبث والحدث معاً ، أما أن يرتفع به الحدث ويبقى الخبث فلا وجه له — فيما يبدو — وجلّ من لا تأخذه سنة ولا نوم .

وإن اعتذر مدافع عن شيخ الطائفة بأنّه لا يرى وجوب طهارة المحل من الخبث لارتفاع الحدث — قلنا في جوابه : هذا الشرط ليس محلاً للإجتهاد لأنّه من ضرورات الدين وبديهيّاته تماماً كشرط الطهارة بما هي للصلاة .

٥ — التيمم للنجاسة :

يكون التيمم بشروطه بدلاً عن الماء فيما يُشترط التطهير له من الحدث فقط ، أما التيمم للنجاسة والخبث فلا يسوغ بحال ، ولكنّ الحنابلة قالوا: « من كانت على بدنه نجاسة وعجز عن غسلها لعدم الماء أو خوف الضرر يتيمم للنجاسة ويصلّي » . (المغني لابن قدامة ج١ ص ٢٧٣ الطبعة الثالثة) .

وعن أبي حنيفة : إنّ هذا لا يصلّي إطلاقاً حتى يجد ما يزيل النجاسة (ميزان الشعراني باب الغسل) .

ويلاحظ على قول الحنابلة بأنّ التيمم كما أشرنا هو بدل اضطراري عن الوضوء والغسل من الحدث ، ولا قائل من الحنابلة وغيرهم بجواز الوضوء أو الغسل من أجل النجاسة كي يجوز التيمم بدلاً عنهما من أجلها ، وأيضاً لا نص على ذلك في الكتاب والسنّة . وأيضاً لا يدفع هذا التيمم حرجاً أو مفسدة ولا يجلب مصلحة .. وعليه يكون بدعة في الدين .

ويلاحظ على قول أبي حنيفة بأنّه معصية صريحة ومتعمّدة للأمر بالصّلاة ، لأنّ الطهارة من الخبث شرط لصحة الصلاة حال القدرة عليها ، وتسقط من الأساس عند العجز عنها ، ويبقى وجوب الصلاة قائماً مع النجاسة .

٦ ـ المسح على الخف :

الوضوء عند الشيعة غسلتان ومسحتان : غسلة للوجه واليدين ، ومسحة للرأس والرجلين . وعند السنّة ثلاث غسلات بعطف الأرجل على الأيدي أو الوجوه ، ومسحة واحدة . وتكلّمنا عن ذلك بالتفصيل في كتاب فقه الإمام جعفر الصادق (ع) .

وأجاز السنّة المسح على الخف بدلاً من غسل الرجلين بشرط أن يلبس المكلف الخف على وضوء ثم يحدث بما يوجبه وهو لابس للخف ، والسبب الموجب لهذا الشرط عندهم هو أنّ الحدث المتولّد من الريح أو البول ـ مثلاً ـ يسري في جميع أجزاء البدن ما عدا القدم ، لأنّ وجود الخف فيها يمنع من سريان الحدث إليها . (حاشية ابن عابدين ج١ ص١٨٣ وفتح القدير ج١ ص ١٠١) .

ويلاحظ أولاً بأنّ الحدث ليس شيئاً محسوساً حتى يسري في البدن

وأجزائه ، وإنّما هو مجرّد اصطلاح من الفقهاء أرادوا به الحال التي لاتصح معها الصلاة ، وأنّ هذه الحال تذهب وتزول بالوضوء أو الغسل على التفصيل المذكور في كتب الفقه .

ثانياً : على القول أنّ الحدث يسري في البدن ، وأنّ الخف في القدم يمنع من سريان الحدث إليها — ينبغي ، والحال هذه ، أن يسقط غسل القدم والمسح على الخف من الأساس حيث لا موجب لهما إطلاقاً . كما هو الفرض.. أللهمّ إلا أن يقال بأنّ الحدث تسرّب إلى الخف دون القدم !.

ثالثاً : إذا جاز المسح على الخف فينبغي أن يجوز المسح على القفاز أيضاً، لأنّه يمنع من سريان الحدث إلى الكف تماماً كما منع الخف !. ولا قائل بذلك حتّى من الذين أجازوا المسح على الخف .

وبعد ، فإنّ أحكام الله لا تعلّل بما يدور في الرؤوس . أو يضطرب في النفوس .. أبداً لا طريق لأحكام الله إلا النّص الثابت ، وما ينفع الناس حتّى النّص يرتكز على هذا الأساس .

٧ — مسح الرأس :

اختلف الفقهاء في مسح الرأس عند الوضوء على أحد عشر قولاً :

الأول — يكفي مسح شعرة واحدة .

الثاني — ثلاث شعرات .

الثالث — مسح ربع الرأس .

الرابع — الثلث .

الخامس — مسح الثلثين .

السادس – جميع الرّأس الخ . (كتاب أحكام القرآن لابن العربي المغافري ج١ ص٢٣٥ طبعة ١٣٣١ هـ) .

أحد عشر تفسيراً لقوله تعالى : « وَامْسَحُوا بِرُؤُوسِكُمْ – ٦ المائدة » !. هل القرآن ألغاز وطلاسم ، أو نزل بلغة الطيور والحيوانات ؟: « إنّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَعَلّكُمْ تَعْقِلُونَ – ٣ الزخرف) . والعقل البشري يرقى على هذه الأدران ، ويقف سدّاً منيعاً دونها ودون أمثالها .

٨ – المتعصب حمار الشيطان :

يُفتي الأحناف بطهارة النّبيذ ، ويرى الشّافعيّة نجاسته . ولما سئل فقيه شافعي عن حكم طعام وقعت عليه قطرة نبيذ قال : يُرمى لكلب أو حنفي !!.

وسئل فقيه حنفي عن زواج حنفي بشافعية ؟. فقال : يجوز قياساً على زواجه بيهودية أو نصرانية !! .

وقال فقيه مالكي : من حلف على أنّ جميع ما في موطأ مالك من الأحاديث – صحيح فإنّه لا يحنث في يمينه . أما من حلف على أنّ جميع ما في البخاري ومسلم من الأحاديث – صحيح فإنّه يحنث في يمينه .

وكان أبو حنيفة يرى وجوب قراءة الفاتحة في الصّلاة على الإمام والمنفرد، ولكن من تركها عمداً تصح صلاته ، وإن كان آثماً تماماً كالنظر إلى الأجنبية في حال الصّلاة . أما الشافعي فكان يفتي ويعمل بحديث « لا صلاة لمن لم يقرأ فاتحة الكتاب ». وكان بعض الأحناف يترك قراءة الفاتحة عن قصد وتصميم ، ويتعمّد معصية الله في صلاته ، لا لشيء إلا إشباعاً لرغبته في مخالفة مذهب الشّافعي القائل : لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب !!.

وأسوأ من كلّ ذلك قول الشيخ الكرخي : إنّ أية آية في كتاب الله أو رواية من سنّة رسول الله تخالف ما قرّره علماء الأحناف فهي مأوّلة أو منسوخة !!. (تجد هذه السّيئات وغيرها في كتاب ما لا يجوز فيه الخلاف بين المسلمين ، الفصل الثامن للشيخ عبد الجليل عيسى شيخ كليّي أُصول الدّين واللغة العربية سابقاً ووزير الأزهر الآن : سنة ١٩٧٣).

ومن فضول الكلام ونافلته أن نقول ونسجّل أنّ هذه الشّطحات تحمل معها الرّد على نفسها ، والدّليل القاطع على فسادها .. وهل من شيء أوضح فساداً وضلالاً من الزّعم بأنّ الحنفي بحكم الكلب ، والشّافعية كاليهودية ، والموطأ بمنزلة القرآن ، وقول أبي حنيفة حاكم على كتاب الله وسنّة نبيّه ؟ أما معصية الله عمداً في الصّلاة التي هي عمود الدّين وقرّة عين سيّد المرسلين فتبعد المصلّي عن مرضاته تعالى ورحمته وتقرّبه إلى غضبه ونقمته .

الجمع بين الصلاتين :

لا بد من التنبيه إلى أنّ الأمثلة السّابقة في فقر المتعصب — لا تدل على أنّ كل عالم من المذاهب يتعصب ضد المذهب الآخر .. كلا ، فانّ التعصب بين علماء المذاهب جزئي لا كلّي ، ومن الهوى والجهل لا من المبدإ والقاعدة العامة .. وإلا كان التعصب ديناً وعقيدة عند المذاهب ، وعليه تكون نسبتها إلى الإسلام زوراً وافتراءً ، لأنّه يأبى التعصب ويرفضه شكلاً وأساساً بنص الكتاب والسنّة ، بل وبضرورة الدّين وإجماع المسلمين .

وتسأل : إذا كان التعصّب عند السنّة خاصّاً لا عاماً ، وجهلاً لا مبدأ وعقيدة — فكيف أجمعت مذاهبهم بكاملها على تحريم الجمع بين الظهرين والعشائين إلا في عرفة أو المزدلفة ، أو في خوف أو مطر مع رواية علمائهم عن رسول الله (ص) : أنّه جمع في غير خوف ولا سفر ولا مطر ؟ألا تدل هذه المخالفة الصريحة لأفعال النبي (ص) على أنّ التعصّب ضدّ

الشيعة القائلين بجواز الجمع هو دين وعقيدة عند السنّة على اختلاف مذاهبهم؟

الجواب :

أجل . لقد روى البخاري في صحيحه ، باب تأخير الظهر إلى العصر : « أنّ النبي (ص) صلّى بالمدينة سبعاً وثماني : الظهر والعصر ، والمغرب والعشاء ». وأيضاً روى مسلم في صحيحه . باب الجمع بين الصّلاتين في الحضر : « إنّ النبي (ص) صلّى الظّهر والعصر جميعاً . والمغرب والعشاء جميعاً في غير خوف ولا سفر » . ومثله في سنن أبي داود السجستاني . باب الجمع بين الصّلاتين . وروى الترمذي في سننه . باب ما جاء في الجمع بين الصّلاتين في الحضر : « إنّ النبي (ص) جمع بين الظهر والعصر ، والمغرب والعشاء بالمدينة من غير خوف ولا مطر » . وأيضاً روى النّسائي في سننه ج١ ص ٢٨٦ طبعة ١٣٤٨ هـ : « إنّ النبي (ص) جمع بين الظهرين والعشائين ». وأثبت ذلك الشافعي في كتاب الام . وابن حنبل في المستند . ومالك في الموطأ . وروى محمد الزّرقاني في شرح الموطأ عن الأحناف : أنّهم يعترفون بأنّ النبي (ص) جمع ، ولكنّهم أوّلوا وتصرّفوا [1] .

ومع ذلك فنحن لا نعتقد بأنّ السبب الموجب لمخالفة الظاهر من فعل الرسول الأعظم هو مجرّد التعصّب ضدّ الشّيعة من كافة علماء المذاهب الأربعة ، بل يجوز أن يكون الموجب التعصّب ، أو شبهة لا تقوم على أساس .

---

(١) استندنا في النقل عن الصحيحين وكتب السنن وأئمة المذاهب – الى كتاب حول الصلاة والجمع بين فريضتين للخطيب الشيخ عبد اللطيف البغدادي ، وهو أول كتاب في بابه من حيث التتبع والاستقصاء ، وكثرة الشواهد والأرقام في حدود ما علمت وأطلعت .